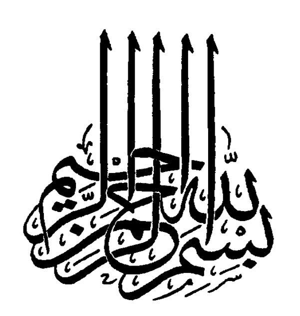
سلسلة تيسير طلب العلم

القواعد الحسان لتفسير القرآن

عَبْد الرَّحمَن بن نَاصر السَّعْدي
رحمه الله تعالى
١٣٠٧- ١٣٧٦ هـ

دار البصيرة
الإسكندرية



القواعد الحسان

لتفسير القرآن



سلسلة تيسير طلب العلم

دار البصيرة

جمهورية مصر العربية
الإسكندرية ـ ٢٤ ش كانوب ـ كامب شيزار
ت : ٥٩٠١٥٨٠ ـ محمول : ٠١٢٢٢٤٠٣٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعــد..

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تعين قارءها ومتأملها علىٰ فهم كلام الله، والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها، فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومنهاج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة.

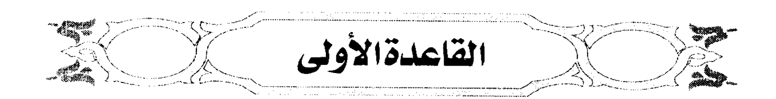
أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلىٰ العلم النافع والهدىٰ الكامل.

واعلم أن علم التفسير أجل العلوم علىٰ الإطلاق، وأفضلها وأوجبها، وأحبها إلىٰ الله؛ لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنىٰ علىٰ القائمين بذلك، وجعلهم في أعلىٰ المراتب، ووعدهم أسنىٰ المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساس السعادة في الدارين، وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة فكانت حياة العبد حياة زاهرة بالهدىٰ والخير

والرحمة، وطيب الحياة والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود؛ لأنه إذا انفتح للعبد الباب وتمهدت بفهم القاعدة الأسباب، وتدرب منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها لم يحتج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل، ونسأله تعالى أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه وإحسانه.

* * *



القاعدة الأولى

في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقًا وعمل عملاً، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلىٰ غايته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها، بل هو أساسها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخَلْقِ وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلىٰ أهدىٰ الأمور وأقومها ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

فعلىٰ الناس أن يتلقوا معاني كلام الله كما تلقاه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فإنهم إذا قرأوا عشر آيات أو أقل أو أكثر لم يتجاوزوها حتىٰ يعرفوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل فينزلونها علىٰ الأحوال الواقعة فيعتقدون ما احتوت عليه من الأخبار وينقادون لأوامرها ونواهيها ويدخلون فيها جميع ما يشاهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم ويحاسبون أنفسهم هل هم قائمون بها أو مخلون؟ وكيف الطريق إلىٰ الثبات علىٰ الأمور النافعة وإيجاد ما نقص فيها وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه ويتخلقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم ومطالبون بمعرفة معانيه والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه وجَدّ واجتهد في تدبر كلام الله، انفتح له

الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته؛ واستغنى بهذه الطريق عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية. وخصوصًا إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانبًا قويًا، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه بيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح، مبين لها، حاث عليها، زاجر عن المضار كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم موقعها، وكثرة فوائدها وثمرتها.

ويلحق بهذه القاعدة:



القاعدة الثانية

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب

وهذه القاعدة نافعة جدًا، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع في الغلط والارتباك الخطير.

وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيت هذه القاعدة حق الرعاية، وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول إنما هو على سبيل المثال لتوضيح الألفاظ، وليست معاني الألفاظ والآيات مقصورة عليها، فقولهم: نزلت في كذا وكذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها ومن جملة ما يراد بها، فإن القرآن ـ كما تقدم ـ إنما أنزل لهداية أول الأمة وآخرها، حيث تكون وأنى تكون.

والله تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة، فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟

ولهذا قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إذا سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، فأرعها سمعك، فإنه إما خير تؤمر به، وإما شر تنهى عنه.

فمتى مر بك خبر عن صفات الله وأسمائه، وعما يستحقه من الكمال، وما يتنزه عنه من النقص، فأثبت له جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته سبحانه لنفسه، ونزهه عن كل ما نزه نفسه عنه.

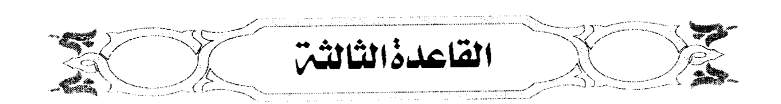
وكذلك إذا مر بك خبر عن رسله، وكتبه، واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، فاجزم جزمًا لا شك فيه أنه على حقيقته، بل هو أعلى أنواع الحق والصدق، ومَن أصدق من الله قيلاً وحديثًا؟!.

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه وما يدخل فيه وما لا يدخل وعلمت أن ذلك الأمر موجه إلى جميع الأمة، وكذلك في النهي.

ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسولِهِ أصل كل الخير والفلاح، والجهلُ بذلك أصلَ كلِّ الشر والخسران.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله والقيام بها.

والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها، قال تعالى: ﴿ **وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً** ﴾ [الفرقان: ٣٣]، يوضح ذلك ويبينه، وينهج طريقته:



القاعدة الثالثة

دخول «أل» لعموم الاستغراق بحسبه

الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه .

وقد نص على ذلك أهل الأصول وأهل العربية ، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان ، فمثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٥] .

أدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلى آخرها ، وإن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رتب عليها من المغفرة والأجر العظيم وبنقصانها ينقص وبعدمها يفقد وهكذا كل وصف رتب عليه خير وأجر وثواب .

وكذلك: ما يقابل ذلك ؛ كل وصف نهى الله عنه ورتب عليه وعلى الاتصاف به عقوبة وشرًا ونقصًا يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور .

وكذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا** ﴾ [المعارج: ١٩، ٢٠، ٢٢] . عام بجنس الإنسان فكل إنسان هذا وصفه إلا من استثنى الله بقوله : ﴿ **إِلاَّ الْمُصَلِّينَ** ﴾ [المعارج: ٢٢] . . . إلى آخرها ، كما أن قوله : ﴿ **وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ** ﴾ [العصر: ١، ٢] ، وكل إنسان متصف بالخسار ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ الآية وأمثال ذلك كثير .

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة : في الأسماء الحسنى ، فإن في القرآن منها شيئًا كثيراً وهي أجل علوم القرآن .

فمثلاً يخبر الله عن نفسه: أنه الرب الحيّ القيوم وأنه الملك والعليم والحكيم والعزيز والرحيم والقدوس والسلام والحميد المجيد، فالله هو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها، وهي صفات الكمال كلها والمحامد كلها والفضل كله والإحسان كله وأنه لا يشارك الله أحد في معنىٰ من معاني الألوهية لا بشر ولا ملك بل هم جميعًا متألهون متعبدون لربهم خاضعون لجلاله وعظمته، فلا ينبغي أن يكون أحد منهم ندًا، ولا شريكًا لله في عبادته وإلهيته، فبربوبيته سبحانه يربي الجميع من ملائكة وأنبياء وغيرهم: خلقًا ورزقًا وتدبيراً وإحياء وإماتة، وهم يشكرونه علىٰ ذلك بإخلاص العبادة كلها له وحده، فيؤلهونه ولا يتخذون من دونه أليًا ولا شفيعًا، فالإلهية حق له سبحانه علىٰ عباده بصفة ربوبيته، وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك، وله الملك الكامل والتصرف النافذ، وأن الخلق كلهم مماليك لله عبيد تحت أحكام ملكه القدرية والشرعية والجزائية، وأنه العليم بكل شيء الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي أحاط علمه بالبواطن والظواهر والخفيات والجليات والواجبات والمستحيلات والجائزات والأمور السابقة واللاحقة والعالم العلوي والسفلي والكليات والجزئيات، وما يعلم الخلق، وما لا يعلمون، وأنه الحكيم الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه وقدره وخلقه وجميع ما شرعه، لا يخرج عن حكمته مخلوق ولا مشروع، وأنه العزيز الذي له جميع معاني العزة علىٰ وجه الكمال التام من كل وجه عزة القوة وعزة الامتناع وعزة القهر والغلبة وأن جميع الخلق في غاية الذل ونهاية الفقر ومنتهىٰ الحاجة والضرورة إلىٰ ربهم وأنه الرحيم الذي له جميع معاني الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء ولم يخل مخلوق من إحسانه وبره طرفة عين، تبلغ رحمته حيث يبلغ علمه: ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا** ﴾ [غافر: ٧].

وأنه القدوس السلام المعظم المنزه عن كل عيب وآفة ونقص وعن مماثلة أحد وعن أن يكون له ندٌّ من خلْقِهِ.

وهكذا بقية الأسماء الحسنىٰ: اعتبرها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله. بل أصل معرفة الله معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنىٰ من المعاني العظيمة بحسب ما يقدر عليه العبد وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق بذلك، ولن يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه وفوق ما يثني عليه عبادُهُ.

ومن ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**﴾ [المائدة: ٢]، يشمل جميع أنواع البر والخير وتشمل التقوىٰ جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المعاصي والمحرمات.

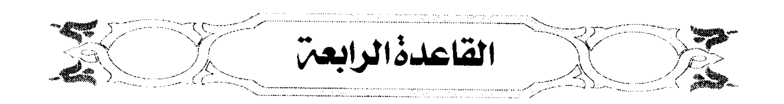
والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم، ويوقع في المعصية.

كما أن **العدوان**: اسم جامع يدخل فيه جميع أنواع التعدي علىٰ الناس في الدماء والأموال والأعراض، والتعدي علىٰ مجموع الأمة وعلىٰ الحكومات والتعدي لحدود الله.

والمعروف في القرآن: اسم جامع لكل ما عرف حسنه وجماله شرعًا وعقلاً، وعكسه: المنكر والسوء والفاحشة.

وقد نبه النبي ﷺ أمته إلىٰ هذه القاعدة، وأرشدهم إلىٰ اعتبارها، إذ علمهم أن يقولوا في التشهد في الصلاة: «السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين»، فقال: «فإنكم إذا قلتم ذلك سلمتم علىٰ كل عبد لله صالح من أهل السماء والأرض»، وفي القرآن كثير جدًا من هذا.

* * *



القاعدة الرابعة

النكرة في سياق النفي أو النهي

إذا وقعت النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام: دلت على العموم، كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، فإنه نهى عن الشرك به في النيات، والأقوال والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر، والخفي، والجلي، فلا ينبغي أن يجعل العبد لله ندًا ومشاركًا في شيء من ذلك.

ونظيرها: قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩]، يعم كل نفس، وأنها لا تملك في هذا اليوم شيئًا من الأشياء، لأي نفس أخرى، مهما كانت الصلة، لا إيصال شيء من المنافع، ولا دفع شيء من المضار.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، فكل ضر قدره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كائنًا من كان كشفه بوجه من الوجوه.

ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية إنما هو جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.

وقوله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

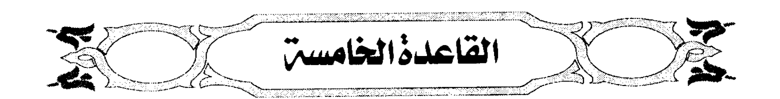
وقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب، أو دفع مكروه، فإن الله هو المنفرد

بذلك وحده.

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [فاطر: ٣].

وإذا دخلت (من) صارت نصًا في العموم، كهذه الآية ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، وقوله في غير آية: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ولها أمثلة كثيرة جدًا.

* * *



المفرد المضاف يفيد العموم كاسم الجمع

المقرر: أن المضاف يفيد العموم، كما يفيد ذلك اسم الجمع، فكما أن قوله تعالىٰ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣] إلىٰ آخرها، يشمل كل أم انتسبت إليها، وإن عَلَتْ، وكل بِنْت انتسبت إليك، وإن نَزَلَتْ، إلىٰ آخر المذكورات.

فكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحىٰ: ١١] فإنها تشمل النعم الدينية والدنيوية.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فإنها تعم الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، الجميع من الله فضلاً وإحسانًا، وأنك قد أتيت ما أتيت منه وأوقعته وأخلصته لله وحده، لا شريك له.

وقوله: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] علىٰ أحد القولين: إنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحج: اتخذوه معبدًا.

وأصرح من هذا: قوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل ١٢٣] وهذا شامل لكل ما كان عليه إبراهيم من التوحيد والإخلاص لله تعالىٰ، والقيام بحق العبودية.

وأعم من ذلك وأشمل: قوله تعالىٰ، لما ذكر الأنبياء: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدىٰ، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدىٰ المستقيم.

وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: «أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يَرِدْ شرعُنا بخلافه» وشرعُ الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وهذا يعم جميع ما شرعه لعباده، فعلاً وتركًا، اعتقادًا وانقيادًا، وأضافه إلى نفسه في هذه الآية لكونه هو الذي نصبه لعباده، كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله: ﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ [الفاتحة: ٧] لكونهم هم السالكين له.

فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين الذي كانوا دائمين عليه من العلوم والأخلاق والأوصاف والأعمال.

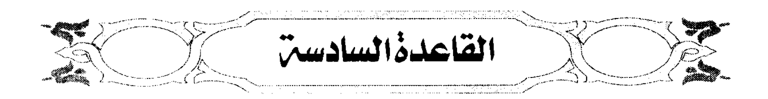
وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ١١٠] يدخل في ذلك جميع العبادت الظاهرة والباطنة، والعبادات الاعتقادية والعملية، كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى الله كقوله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ** ﴾ [الفرقان: ١] تدل على أنه وفَّى جميع مقامات العبودية، حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبودية.

وقوله: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [الزمر: ٣٦] فكلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتم، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.

وقوله: ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ [القمر: ٥٠].

وقوله: ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [النحل: ٤٠] يشمل جميع أوامره القدرية الكونية. وهذا في القرآن شيء كثير.

* * *



القاعدة السادسة

في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضده

يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد ونفي ضده. وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الإلهية، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ويخبر أن جميع الرسل إنما أرسلت تدعو قومها إلىٰ أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأن الله تعالىٰ إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه، وأن الكتب والرسل، بل الفطر والعقول السليمة كلها اتفقت علىٰ هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأن من لم يدين بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب والعمل لله وحده. فعمله باطل: ﴿ **لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ** ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿ **وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ٨٨].

ويدعو العباد إلىٰ ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن الله المنفرد بالخلق والتدبير والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي يستحق العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره، وأن سائر الخلق ليس عندهم أي قدرة علىٰ خلق، ولا نفع ولا دفع ضر عن أنفسهم فضلاً عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئًا.

ويدعوهم أيضًا إلىٰ هذا الأصل بما يمتدح به، ويثني علىٰ نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجْد، والجلال والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحق من أُخْلِصَت له القلوب والأعمال الظاهرة والباطنة.

ويقرر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعًا ولا جزاء ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ [يوسف: ٤٠].

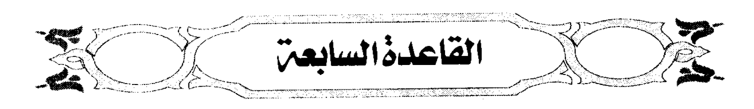
وتارة يقرر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعًا وعقلاً وفطرة، علىٰ جميع العبيد، ويذكر مساوئ الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه

بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضل من الأنعام سبيلاً.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة: فكل خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك، والله أعلم.

* * *



القاعدة السابعة

في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ

هذا الأصل الكبير: قرره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ، فأخبر أنه صدق المرسلين، ودعا إلىٰ ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء في نبينا محمد ﷺ، وما نزهوا عنه من النقائص والعيوب، فرسولُنا محمد ﷺ أَوْلاهُم وأحَقّهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة علىٰ جميع الشرائع، وكتابه مهيمن علىٰ كل الكتب.

فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره، وقرر نبوته بأنه أميٌّ لا يكتبُ، ولا يقرأ، ولا جالس أحدًا من أهل العلم بالكتب السابقة، بل لم يفجأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله ما أتوا ولا قدروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوّله علىٰ ربه أو أن يكون علىٰ الغيب ظنينًا.

وأعاد في القرآن وأبدىٰ في هذا النوع وقرر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطولة علىٰ الوجه الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد ثم يخبر تعالىٰ أنه ليس له طريق ولا وصول إلىٰ هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالىٰ لما ذكر قصة موسىٰ مطولة: ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ**﴾ [القصص: ٤٤]، ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة قال: ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصلة التي يفصلها الرسول ﷺ بما أوحي إليه تفصيلاً،

صحح به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير، حتى ما يتعلق منها بعيسى وأمه وولادتهما ونشأتهما، وبموسى وولادته ونشأته، كل ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن، فقص ذلك على ما وقع وحصل، مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته، ولا ممن كانوا بعد ذلك أن يكذبوا بشيء منها، فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقًا.

وتارة يقرر نبوته بكمال حكمة الله، وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض هو مقتضى حكمة ورحمة العزيز الحكيم، وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله، وفي قدرته، وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأملين.

وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خلق عال سام فلرسول الله ﷺ أعلاه وأكمله.

فمن عظمت صفاته، وفاقت نعوته جميع الخلق، التي أعلاها: الصدق والأمانة، أليس هذا أكبر الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟

وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، إما باسمه العلم أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته، وأوصاف بيئته، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ [الصف: ٦].

وتارة يقرر رسالته بما أخبره به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة التي وقعت في زمان مضى على زمانه أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت، فلولا

الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به .

وتـارة يقررها بحفظه إياه وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجدهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم، وما ذاك إلا لأنه رسوله حقًا، وأمينه على وحيه والمبلغ ما أمر به .

وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به، وهو القرآن الذي ﴿ **لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢]، ويتحدى أعداءه ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة فعجزوا ونكصوا وباءوا بالخيبة والفشل .

وهم أهل اللسان المبرزون في ميدان القول والفصاحة ومع ذلك ما استطاعوا مع شدة حرصهم ومحاولتهم ـ أن يأتوا بسورة منه وما استطاعوا ولا قدروا ـ مع شدة حرصهم ومحاولتهم ـ أن يجدوا فيه نقصًا أو عيبًا ينزل به عن أعلى درجات الفصاحة التي ملكت أزمة قلوبهم فلجأوا إلى السيف وإراقة دمائهم، وما كانوا يعمدون إلى هذا لولا أنهم لم يجدوا سبيلاً إلى محاربته بالقول وما كانوا يزعمونه عندهم علومًا وحكمًا فكان عدولهم إلى السيف وإراقة الدماء أكبر الأدلة على صدق الرسول وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وأقطع البراهين على أنه الحق والهدى من عند الله الذي جمع الله فيه لرسوله ﷺ وللمؤمنين به كل ما يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة في كل شئونهم، وأن هذا القرآن لأكبر أدلة رسالته وأجلها وأعمها .

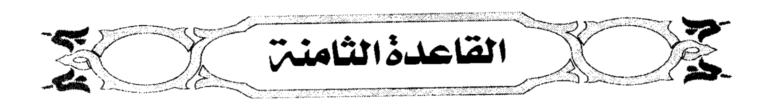
والله تعالى يقرر أن القرآن كاف جدًا أن يكون هو الدليل الوحيد على صدق رسوله ﷺ، في مواضع عدة، منها: قوله: ﴿ **أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وتـــارة يقررها بعظيم شفقته ﷺ على الخلق، وحنوه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا برًا

وإحسانًا إلى الخلق منه . وآثار ذلك ظاهرة للناظرين .

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة ، ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة ، وأمثلتها تفوق العد والإحصاء . والله أعلم .

* * *



القاعدة الثامنة

طريقة القرآن في تقرير المعاد

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائعُ كلها، وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه الكريم، وقرره بطرق متنوعة.

منهـا: إخباره وهو أصدق القائلين عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، ومع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه: كقوله: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ [القيامة: ١].

ومنهـا: الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنهـا: تذكيره للعباد بالنشأة الأولى، وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا، لا بد أن يعيدهم كما بدأهم، وأن الإعادة أهون عليه. وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

ومنهـا: إحياؤه الأرض الهامدة الميتة، بعد موتها، وأن الذي أحياها سيحيي الموتى، وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السموات والأرض، والمخلوقات العظيمة.

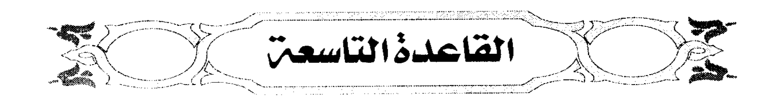
فمتى أثبت المفكرون ذلك، ولن يقدروا على إنكاره، فلأي شيء يستبعدون إحياء الموتى؟ وقرر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين، لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة، وكيف نجى الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث؟ ونوع عليهم العقوبات؟ وأحل بهم المثلات، فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عبادَهُ، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيي عن بينة.

ومن ذلك: ما أرى اللهُ عبادَهُ من إحيائه الأموات في الدنيا كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى ابن مريم للأموات وغيرها مما أراه اللهُ عبادَهُ في هذه الدار، ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لا بد أن يردوا دارَ القرار، إما الجنة وإما النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة. والله أعلم.

* * *



القاعدة التاسعة

في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية

قد أمر الله تعالىٰ بالدعاء إلىٰ سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق موصل للمقصود محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية، هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلىٰ الخير، وينهاهم عن الشر بالوصف، الذي مَنَّ عليهم به، وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، واتركوا كذا؛ لأن في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحث علىٰ القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خلق حميد والتجنب لكل خلق رذيل. فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي.

ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلت علىٰ هذا الأصل الأدلةُ الكثيرة، من الكتاب والسنة ـ وهذا أحدها، حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ أو يعلق فعل ذلك علىٰ الإيمان وأنه لا يتم الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أن يدعوهم بقوله: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، ويعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا مَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالإيمان، قوموا بشكر هذه النعمة، بفعل كذا، وترك كذا.

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو: الانقياد التام لأمره ونهيه.

وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، وأن النعم تقتضي منهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، وبذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب، وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى وما له من الحق العظيم على عباده، وأن حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهرًا وباطنًا، ويتعبدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنى، وصفاته المقدسة.

فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير وإجلال وإكرام، وتودد إليه، وتقرّب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده وليًا وملجأ، ومَلاذًا ومعاذًا، ومفزعًا إليه في الأمور كلها وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليته الخاصة تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنيه ويغره، حتى يفوته المنافع والمصالح ويوقعه في المهالك.

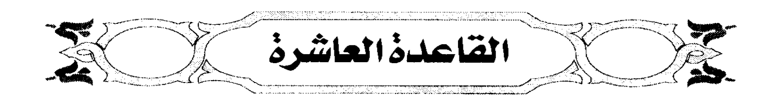
وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثهم على ذلك ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المبدَّلة؛ لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام.

كقوله: ﴿ **وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿ **فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿ **وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ [الحديد: ١٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

* * *



في طرق القرآن إلى دعوة الكفار على اختلاف مللهم ونِحَلِهم

يدعوهم إلى الإسلام، والإيمان بمحمد ﷺ، بما يصفه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ ليهتدي من قصد الحق والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند، وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

فإن محاسن دين الإسلام ومحاسن النبي ﷺ، وآياته وبراهينه فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم، وما يحتجون به. فإن الحق إذا اتضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

ويدعوهم بما يخوفهم من أخذات الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة ويحذرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء، فإنهم رؤساء الشر، ودعاة النار وأنهم لا بد أن تتقطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول، ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدل بغضاء وعداوة.

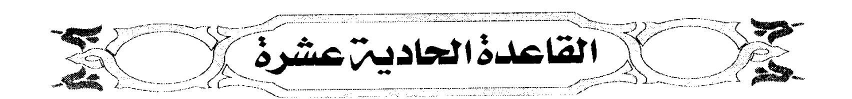
ويدعوهم أيضًا بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونِعَمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضًا بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح،

ويقارن بينها وبين دين الإسلام، ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره ويدعوهم بالتي هي أحسن، فإذا وصلت بهم الحال إلىٰ العناد والمكابرة الظاهرة توعدهم بالعقوبات الصوارم، وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً أو لقيام شبهة أوجبتْ لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد.

ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدىٰ، وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل علىٰ الحق طبع علىٰ قلوبهم وختم عليها وسد عليهم طريق الهدىٰ ـ عقوبة لهم علىٰ إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن الرحمن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم، وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية. والله أعلم.

* * *



مراعاة دلالة التضمن والمطابقة والالتزام

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني، التي لم يعرج في اللفظ علىٰ ذكرها.

وهذه القاعدة: من أجلِّ قواعد التفسير، وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحسن تدبر وصحة قصد، فإن الذي أنزله للهدىٰ والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكن الصدور، وبما تضمنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدمها، وتتوقف هي عليه، ولهذا أجمع العلماء علىٰ الاستدلال باللوازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلىٰ سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دل عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهمًا جيدًا، ففكر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها وما يشترط لها، وكذلك فكر فيما يترتب عليها وما يتفرع عنها، وينبني عليها؟

وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتىٰ يصير لك ملكة جيدة في الغوص علىٰ المعاني الدقيقة، فإن القرآن حق، ولازم الحق حق، وما يتوقف علىٰ الحق حق، وما يتفرع عن الحق حق، ذلك كله حق ولا بد.

فمن وفق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقًا ونورًا انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة والأخلاق السامية، والآداب الكريمة العالية.

ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسماء الله الحسنىٰ (الرحمن الرحيم) فإنها تدل بلفظها علىٰ وصفه

بالرحمة، وسعة رحمته، فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة هي وصفه الثابت وأنه أوصل رحمته إلىٰ كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين، عرفتَ أن هذا الوصف يدل علىٰ كمال حياته، وكمال قدرته وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقف الرحمة علىٰ ذلك كله. ثم استدللتَ بسعة رحمته علىٰ أن شرعَه نورٌ ورحمةٌ.

ولهذا يعلل الله تعالىٰ كثيرًا من الأحكام الشرعية برحمته، وإحسانه؛ لأنها من مقتضاها وأثرها.

ومنها: قوله تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾ [النساء: ٥٨].

فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات إلىٰ أهلها، استدللتَ بذلك علىٰ وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك، وأنك لا تنال رضا الله إلا بأدائها لأهلها.

وإذا فهمتَ أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل استدللتَ بذلك علىٰ أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لا بد أن يكون عالمًا بما يحكم به.

فإن كان حاكمًا عامًا، فلا بد أن يحصل من العلم ما يؤهله لذلك.

وإن كان حاكمًا ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، حيث أمر الله أن نبعث حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، فلا بد أن يكون عارفًا بهذه الأمور التي يريد أن يحكم فيها ويعرف الطريق التي توصله إلىٰ الصواب منها.

وبهذا بعينه نستدل علىٰ وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد، فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة.

ومن المعلوم: أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف علىٰ معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمر الذي لا يعرفه، أو يتجنب الأمر

الذي لا يعرفه؟

وكذلك أمره لعباده، أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر، ليأمروا بهذا، وينهوا عن هذا.

فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فتركُهُ واجب.

فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدم على القيام به. والعمل بضد ذلك متقدم على تركه، لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرباً وتعبداً حتى يعرفه ويميزه عن غيره.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد، والحث عليه، من لازم ذلك الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به؛ من تعلم الرمْي بكل ما يرمى به والركوب لكل ما يركب، وعمل آلاته وصناعاته، مع أن ذلك كله داخل دخول مطابقة في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠]، فإنها تتناول كل قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية ونحوها.

ومن ذلك: أن الله استشهد بأهل العلم على توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وهذا يدل على عدالتهم، وأنهم حجة من الله تعالى على مَنْ كَذب بمنزلة آياته وأدلته.

ومن ذلك: أن سؤال عباد الرحمن ربَهم أن يجعلهم للمتقين إمامًا يقتضي سؤالهم الله جميع ما تتم به الإمامة في الدين، من علوم ومعارف جليلة، وأعمال صالحة وأخلاق فاضلة، لأن سؤال العبد لربه شيئًا سؤال له، ولما لا يتم إلا به. كما إذا سأل العبد الله الجنة، واستعاذ به من النار، فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرب إلى هذه ويبعد من هذه.

ومن ذلك: أن الله أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه

لا يصلح عمل المفسدين، فيستدل بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم وكل أمر يعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل فساد وضرر وشر فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧]، و﴿حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به والأمر بكل ما فيه حث وتحريض على القتال وما يتوقف على ذلك، ويتبعه من الاستعداد، والتمرن على أسباب الشجاعة والسعي في القوة المعنوية من التآلف واجتماع الكلمة، ونحو ذلك.

ومن ذلك: الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها، وتعليمها، فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلفين يدخل في ذلك، حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، ووجدت أسبابها، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الصيام، والفطر، والحج وغيره بالأهلّة إبلاغها بالأصوات والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك، كالبرقيات ونحوها.

وكذلك يدخل فيه: كل ما أعان على إيصال الأصوات إلى السامعين، من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها، فكل أمر ينفع الناس فإن القرآن لا يمنعه، بل يدل عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به.

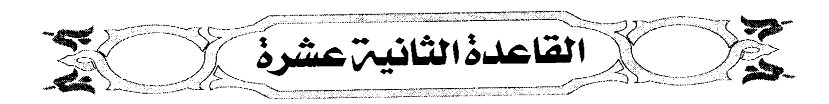
وهذا من آيات القرآن وأكبر براهينه أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئًا منه فإنه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلاً أو يرد بما لا تهتدي إليه العقول.

وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه، فهذا محال، والحس والتجربة شاهدان بذلك، فإنه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات، وتبحرت

المعارف الطبيعية، وظهر للناس في هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك، فإن القرآن ولله الحمد، لا يخبر بإحالته، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال أو إشارات تدل عليه.

وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في غير هذا الموضع، والله أعلم وأحكم. وبالله التوفيق.

* * *



الآيات التي يظن فيها التعارض

الآيات القرآنية التي يفهم منها قصار النظر التعارض، يجب حمل كل نوع منها على ما يليق ويناسب المقام كل بحسبه.

وهذا في مواضع متعددة من القرآن.

منها: الإخبار في بعض الآيات: أن الكفار لا ينطقون، ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون ويحاجون ويعتذرون، ويعترفون.

فمَحمل كلامهم ونطقهم: أنهم في أول الأمر يتكلمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر ويقسمون على ذلك.

ثم إذا ختم على ألسنتهم وأفواههم، وشهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يكسبون ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم أخرسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة مع أنه أثبت الكلام لهم معه فالنفي واقع على الكلام الذي يسرهم، ويجعل لهم نوع اعتبار.

وكذلك النظر والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم، على وجه التوبيخ لهم والتقريع.

فالنفي يدل على أن الله ساخط عليهم، غير راض عنهم، والإثبات يوضح أحوالهم ويبين للعباد كمال عدل الله بهم، إذ هو يضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك: أن في بعض الآيات أخبر أنه ﴿ **لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ** ﴾

[الرحمن: ٣٩]، وفي بعضها: أنه يسألهم: ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٢]، و﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]، ويسألهم عن أعمالهم كلها.

فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة، فإنه لا حاجة إلىٰ سؤالهم، مع كمال علم الله، واطلاعه علىٰ ظاهرهم وباطنهم وجليل أمورهم ودقيقها.

والسؤال المثبت: واقع علىٰ تقريرهم بأعمالهم، وتوبيخهم وإظهار أن الله حكم فيهم بعدله وحكمته.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة، وفي بعضها: أثبت لهم ذلك.

فالمثبت: هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس، كقوله: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٥] إلىٰ آخرها.

والمنفي: هو الانتفاع بها. فإن الكفار يدعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة، فأخبر تعالىٰ أنه ﴿ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم، وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية مَنْ صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فهذا لما اشتركوا في الإيمان وأصل الصلاح زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئًا.

ومن ذلك: الشفاعة، فإنه أثبتها في عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضىٰ من خلقه، فتعين حمل المطلق علىٰ المقيد، وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة التي بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله

وعمله، وحيث أثبتت فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه .

ومن ذلك:أن الله أخبر في آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين، والفاسقين، والظالمين، ونحوها، وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم، فيتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ** ﴾ [يونس:٩٦-٩٧]، وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة .

وإنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرد على من ارتكسوا في حمأة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة، وأَبَوْا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف:٥]، ﴿ **وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى** ﴾ [محمد:١٧] . وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه .

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده وعلى عرشه. وفي بعضها: أنه مع العباد أينما كانوا وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين، ونحوهم .

فعلوُّه تعالى أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته، ودنوه ومعيته لعباده لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد، فهو على عرشه عليٌّ على خلقه، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم .

ولا منافاة بين الأمرين؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وما يتوهم بخلاف ذلك فإنه في حق المخلوقين .

وأما تخصيص المعيَّة بالمحسنين ونحوهم فهي معيّة أخص من المعية العامة، فإنها تتضمن محبتهم وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فيه من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول .

ومـن ذلــك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين، وعن موادتهم والاتصال بهم، وفي بعضها الأمر بالإحسان إلى من له حق على الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف، كالوالدين والجار، ونحوهم.

فهذه الآيات العامات من الطرفين، قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ..** ﴾ [الممتحنة: ٨-٩] الآية.

فالنهي واقع على التولي، والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبر واقع على الإحسان لأجل القرابة أو لأجل الجيرة أو الإنسانية على وجه لا يخل بدين الإنسان.

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات.

وفي بعضها: أنه لما أخبر عن خلق السموات، أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها.

فهذه الآية تفسر المراد وأن خلق الأرض متقدم على خلق السموات، ثم لما خلق الله السموات بعد ذلك دحا الأرض فأودع فيها مصالحها المحتاج إليها سكانها.

ومـن ذلـك: أنه تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد، وببعض أحوالهم، وهذا الأخير فيه زيادة معنى، وهو يدل على المجازاة على ذلك العمل، سواء كان خيرًا أو شرًا، فيتضمن مع إحاطة علمه الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة وفي بعض الآيات الأمر بكف الأيدي، والإخلاد إلى السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة، ولا قدرة على

الجهاد باليد، والآيات الأخرىٰ حين قووا وصار ذلك عين المصلحة؛ والطريق إلىٰ قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلىٰ أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلىٰ عموم قدره، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته، ومشيئته، فيفيد مجموع الأمرين إثبات التوحيد، وتفرد الباري بإيقاع الأشياء بقدرته ومشيئته وإثبات الأسباب والمسببات والأمر بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحة مستوىٰ الطرفين فيستفيد المؤمن الجد والاجتهاد في الأخذ بالأسباب النافعة وتدقيق النظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وأن لا يتكل علىٰ نفسه في أمر من الأمور بل يتكل علىٰ الله ويستعين بربه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة، فمن الله، وما أصاب العبد من سيئة، فمن نفسه، ليعرف عباده أن الخير والحسنات والمحاب تقع بمحض فضله، وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العابد، فإنه هو الذي أنعم بالأسباب وهو الذي يسرها، وأن السيئات وهي المصائب التي تصيب العبد، فإنما أسبابها من نفس العبد، وبتقصيره في حقوق ربه، وتعديه لحدوده، فالله وإن كان هو المقدر لها، فإنه قد أجراها علىٰ العبد بما كسبت يداه. ولهذا أمثلة يطول عدها.

❊ ❊ ❊



القاعدة الثالثة عشرة

طريقة القرآن في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمل الطرق التي نصب الله المحاجة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها من أوضح الحجج، وأقواها، وأقومها وأدلها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويش فيه، ولا إزعاج.

فتأمل محاجة الرسل مع أممهم وكيف دعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المنفرد بالربوبية، والمتوحد بالنعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحدًا من الخلق ليس يقدر على رفع ولا دفع، ولا ضر ولا نفع، فإنه بمجرد معرفة العبد ذلك واعترافه به لا بد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيرًا ما يُحتج على المشركين في شركهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء والرازق لكل شيء، فيتعين أن يكون هو المعبود وحده.

فانظر إلى هذا البرهان كيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى أنه لا تنبغي العبادة إلا لمن هذا شأنه، ذلك أن آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل المبطلين أيضًا بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن نفسها فضلاً عن عابديها شيئًا.

ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأن لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ، الذي جاء مصدقًا لما سبقه من

الرسالات التي مقصدها جميعًا واحد، وهو فك أغلال التقليد عن قلوب بني آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق، وأن كل ما اتخذه الناسُ بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة، فلا يخرج شيء منها عن أن يكون أثرًا من آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الإلهية، ولا ينبغي أن تعطىٰ إلا حقها في المخلوقية والعبودية.

وأن الخالق الذي ليس كمثله شيء هو المستحق لكل أنواع العبادة وأن لا يعبد إلا بما أحب وشرع.

وينقض علىٰ رؤساء المشركين ودعاة الباطل دعاويهم الباطلة وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن صدقه ﷺ وحقيقته تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له، فماذا بعد الصدق إلا الكذب؟ وبعد الحق إلا الضلال؟

وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يفيد في الدعوة للحق ورد كل باطل ينافيه.

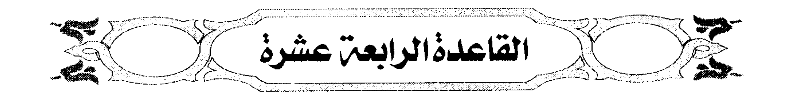
ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه شيئًا من حقوق الرب الخالق الغني، الكامل من جميع الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدىٰ وأحسن من هذا الكتاب ومن هذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين.

ويأمر نبيه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكصون عنها، لعلمهم أنه رسول الله الصادق. الذي لا ينطق عن الهوىٰ وأنهم لو باهلوه لهلكوا.

وفي الجملة؛ لا تجد طريقًا نافعًا فيه إحقاق الحق وإبطال الباطل إلا وقد رسمه القرآن علىٰ أكمل الوجوه.

❊ ❊ ❊



القاعدة الرابعة عشرة

حذف المتعلق المعمول فيه: يفيد تعميم المعنى المناسب له

وهذه قاعدة مفيدة جدًا متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة.

وذلك أن الفعل أو ما هو في معناه متى قيد بشيء تقيد به، فإذا أطلقه الله تعالى وحذف المتعلق كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيرًا من التصريح بالمتعلقات، وأجمع للمعاني النافعة.

ولذلك أمثلة كثيرة جدًا:

منها: أنه قال في عدة آيات: ﴿**لعلكم تعقلون**﴾، ﴿**لعلكم تذكَّرون**﴾، ﴿**لعلكم تتقون**﴾. فيدل ذلك على أن المراد:

لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة.

ولعلكم تذكرون، فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائمًا متيقظين مرهفي الحواس تحسون كل ما تمرون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية.

ولعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي.

ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام.

ولهذا كان قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى**

الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي لعلكم تتقون المحارم عمومًا، ولعلكم تتقون ما حرم الله على الصائمين من قول الزور والعمل به ومن كل الأحوال والصفات السيئة الخبيثة وتتقون وتتجنبون المفطرات والممنوعات، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى وتحصلون على كل ما يقيكم ما تكرهون، وتتخلقون بأخلاقها.

وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ:

مثل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، أي المتقين لكل ما يتقى مما يقتل الإنسانية الكريمة من الغفلة والجهل والتقليد والكفر والفسوق والعصيان، والمتقين الآخذين بكل أسباب القوة على شكر الله بأداء الفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] أي إن الذين كانت التقوى وصفهم، واليقظة والتدبر لسنن الله وآياته حالهم، وترك المحارم شعارهم، متى زين لهم الشيطان بعض الذنوب ولبس عليهم الطريق، وحاول تخديرهم بالشبهات أو الشهوات، تذكروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب إجلالاً لعظمة الله، والهدى والإيمان وما توجبه التقوى.

وتذكروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص وما تسلبه من الكمالات، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ من أين أُتوا، ومبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه، فبادروا بالتوبة النصوح والرجوع إلى صراط الله المستقيم، فعادوا إلى مرتبتهم وعاد الشيطان خاسئًا مدحورًا.

وكذلك ما ذكره على وجه الإطلاق عن المؤمنين بلفظ: «المؤمنين» وبلفظ: «إن الذين آمنوا» ونحوها، فإن حقيقة معنى كلمة: (إيمان) التصديق الحاصل عن علم وفهم وفقه لمن يكون منه هذا الإيمان بأي شيء، يوجب له ولا بد إذعانًا وانقيادًا

لما يدعو إليه هذا الإيمان بذلك الشيء .

ومن ذلك: قول إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا** ﴾ [يوسف:١٧] فإذا فهمت هذا علمتَ أن الإيمان يقصد منه في القرآن : الإيمان بسنن الله وآياته في الأنفس وفي الآفاق، والإيمان بنعم الله وآلائه، وأنها من العليم الحكيم، الذي ما خلق شيئًا لعبًا ولا باطلاً، ولا أنزل ولا شرع شيئًا لعبًا ولا باطلاً، وأن كل ذلك بالحق الثابت الذي لن يتغير ولن يتبدل - فعرفت بذلك أنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من السنن والآيات الكونية والعلمية والأصول والعقائد والأعمال والأحكام مع أنه قيد ذلك في بعض الآيات مثل قوله : ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ** ﴾ [البقرة:١٣٦]. . . الآية ونحوها .

وكـــذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقًا، يدخل فيه كل صلاح في الدنيا والدين كما يدخل في النهي كل فساد كذلك .

وكذلك قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [البقرة:١٩٥]، ﴿ **وَأَحْسِنُوا** ﴾، ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى** ﴾ [يونس:٢٦]، ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [الرحمن:٦٠] .

يدخـل في ذلك كـله: الإحسان في سنن الله وآياته ونعمه وآلائه ليثمر ذلك الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان من قول وفعل وجاه، وعلم ومال وغيرها .

وكذلك قـوله تعالى: ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ [التكاثر:١]، فحذف المتكاثر به ليعم جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة : من الرياسات والأموال والجاه والضيعات، والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس الغافلة عن حكمة الله وسننه فيلهيها ذلك عن طاعة الله .

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢]، أي في خسارة لازمة من جميع الوجوه إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

وقوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه، ليعم كل ما يحتاج العبد أن يعلمه.

وكذلك أمره تعالىٰ بالصبر ومحبته للصابرين وثناؤه عليهم وبيان كثرة أجورهم، من غير أن يقيد ذلك بنوع، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي: الصبر علىٰ طاعة الله، وعن معصية الله، وعلىٰ أقدار الله المؤلمة.

ومقابل ذلك: ذمه للكافرين والظالمين، والفاسقين، والمشركين، والمنافقين، والمعتدين، ونحوهم، من غير أن يقيده بشيء ليشمل جميع ذلك المعنىٰ.

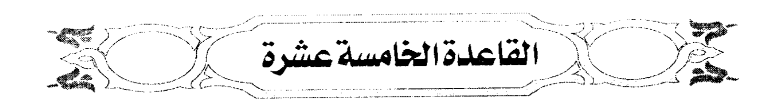
ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦] ليشمل كل حصر ومنع.

ومنه قوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩] ليعم كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور فيتقيد به ما سبق الكلام لأجله.

وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة عليه لطالت، ولكن قد فتح لك الباب، فامش علىٰ هذا السبيل المفضي إلىٰ رياض بهيجة من أصناف العلوم.

❊ ❊ ❊



القاعدة الخامسة عشرة

جعل الأسباب للمطالب العالية مبشرات

جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشرات، لتطمين القلوب، وزيادة الإيمان، وهذا في عدة مواضع من كتابه:

فمن ذلك: النصر، قال في إنزاله الملائكة به: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ**﴾ [الأنفال: ١٠]، وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ**﴾ [الروم: ٤٦].

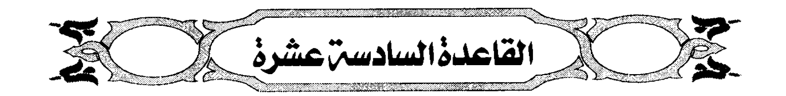
وأعم من ذلك كله قوله: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [يونس: ٦٢ـ٦٤]. وهي ـ البشرىٰ ـ كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد لهم الخير وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه: الثناء الحسن والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق للهدىٰ والعلم والإيمان، والتيسير لليسرىٰ، وتجنيبهم العسرىٰ.

ومن ذلك ـ بل من ألطفه ـ: أنه يجعل الشدائد مبشرات بالفرج، والعسر مؤذنًا باليسر، وإذا تأملتَ ما قصه عن أنبيائه وأصفيائه وكيف أنه لما اشتدت بهم الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ﴿**وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢١٤] يأتيهم الجواب من لطف الله بهم، ومن إيمانهم به وبحكمته ورحمته، وأخذهم سبيل سننه التي جعلها أسبابًا مؤدية إلى النصر، فيجيبهم الحق من كل ذلك: ﴿**أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ رأيت من ذلك العجب العجاب.

وقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾ [الشرح: ٥-٦].

وقال ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا**» رواه أحمد (١/٣٠٧). وأمثلة ذلك كثيرة، والله أعلم.

* * *



القاعدة السادسة عشرة

حذف جواب الشرط لتعظيم الأمر

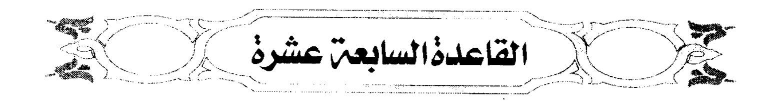
حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد.

وذلك كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧].

فحذف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره، ليدل على عظمة ذلك المقام وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يمكن أن يعبر عنه بلفظ، ولا أن يدرك بالوصف.

ومثله قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] أي: لو علمتم علم اليقين لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط والغفلة واللهو.

* * *



القاعدة السابعة عشرة

إفراد الاسم دل على العموم المناسب

بعض الأسماء الواردة في القرآن، إذا أفرد دل على المعنى العام المناسب له، وإذا قرن مع غيره دل على بعض المعنى، ودل ما قرن معه على باقيه.

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: الإيمان، أفرده وحده في آيات كثيرة، وقرنه مع العمل الصالح والصفات الكريمة في آيات كثيرة.

فالآيات التي أفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة، ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره. وهو عند السلف: قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح.

والآيات التي قرن فيها العمل الصالح: كقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾ [البقرة: ٢٧٧]، يفسر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق والاعتقاد والإنابة، والعمل الصالح: يفسر بالقيام بجميع الشرائع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ: (البر، والتقوى) فحيث أفرد البر دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أفردت التقوى. ولهذا يرتب الله على البر وعلى التقوى عند الإطلاق: الثواب المطلق، والنجاة المطلقة، كما يرتبه على الإيمان.

وتارة يفسر أعمال البر بامتثال أفعال الخير وترك المعاصي، وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤] إلى آخر ما ذكره من أوصاف المتقين، التي لا تتم حقيقة التقوى إلا بها.

وإذا جمع بين (البر)، و(التقوى)، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]:

كان (البر) اسمًا جامعًا لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

وكانت (التقوى) اسمًا جامعًا يتناول ترك جميع المحرمات.

وكذلك لفظ: (الإثم)، و(العدوان) إذا اقترنا فسر الإثم بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه، والعدوان بالتجري على الناس في دمائهم وأعراضهم.

وإذا أفرد (الإثم) دخل فيه كل المعاصي التي تؤثم صاحبها، سواء كانت بينه وبين ربه، أو بينه وبين الخلق، وكذلك إذا أفرد (العدوان).

وكذلك لفظ: (العبادة) و(التوكل) ولفظ: (الاستعانة) إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهرًا وباطنًا، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة، وإذا جمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفسر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها.

وكذلك: (الفقير) و(المسكين) إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، كما في أكثر الآيات، وإذا جمع بينهما، كما في آية الصدقات وهي قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. فسر (الفقير) بمن اشتدت حاجته، وكان لا يجد شيئًا، أو يجد شيئًا لا يقع منه موقعًا، وفسر (المسكين) بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك: الألفاظ الدالة على تلاوة الكتاب والتمسك به وهو اتباعه، يشمل ذلك: القيام بالدين كله، فإذا قرنت معه الصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا

أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠] كان ذكر الصلاة تعظيمًا لها وتأكيدًا لشأنها، وحثًا عليها، وإلا فهي داخلة في الاسم العام وهو التلاوة والتمسك به وما أشبه ذلك من الأسماء.

* * *



القاعدة الثامنة عشرة

إطلاق الهداية والإضلال وتقييدها

في كثير من الآيات يخبر الله بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وفي بعضها: يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية أو الموجبة للإضلال وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره، وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء.

يدل ذلك على كمال توحيده وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء كلها بيده، ويعطي ويمنع ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك وأن يعلقوا أملهم ورجاءهم به وحده في حصول كل ما يحبون منها، ودفع كل ما يكرهون وأن لا يسألوا أحداً غيره، كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**» إلى آخره.

وفي البعض الآخر: يذكر فيها أسباب ذلك، ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع ويدعوا الضار، كقوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ** ﴾ [الليل: ٥ - ١٠] يبين أن أسباب الهداية والتيسير إيمان العبد بحكمة ربه في سننه وخلقه وشرعه وأخذه بهذه السنن وانقياده لأمره الشرعي، وأن أسباب الضلال والتعسير ضد ذلك.

وكذلك قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ** ﴾ [المائدة: ١٦]، ﴿ **يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقوله: ﴿ **فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾

[الأعراف: ٣٠] فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسنًا ومن رغب في الخير واتبع رضوان الله، وأنه يضل من فسق عن سنن الله الحكيمة وتمرد على الله وتولى أعداءه من شياطين الإنس والجن، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسباب التي تنال بها المغفرة والرحمة، والتي تحق بها كلمة العذاب.

كقوله: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ [طه: ٨٢]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ثم ذكر الأسباب التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية، وغيرها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وأعم من ذلك كله: قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عمومًا، وهذه الأسباب المذكورة خصوصًا.

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة وكلها راجعة إلى شيئين:

التكذيب لله ورسوله.

والتولي عن طاعة الله ورسوله.

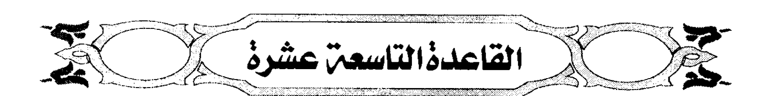
كقوله تعالىٰ: ﴿ لا يَصْلاهَا إلاَّ الأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذي يُؤْتي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ [الليل: ١٥-١٨]، وقوله: ﴿ إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ [طه: ٤٨].

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنها لزوم طاعة الله ورسوله والسعي الجميل في مناكب الأرض مع لزوم التقوىٰ، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وانتظار الفرج والرزق، كقوله تعالىٰ: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

وبكثرة الذكر والاستغفار ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣]، و﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا.. ﴾ [نوح: ١٠-١١] الآية. فأخبر أن الاستغفار سبب يستجلب به مغفرة الله ورزقه وخيره، وضد ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرىٰ وأمثلة هذه القاعدة كثيرة قد عرفت طريقها، فالزمه.

* * *



القاعدة التاسعة عشرة

الأسماء الحسنى في ختم الآيات

يختم الله الآيات بأسماء الله الحسنىٰ، ليدل علىٰ أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلك علىٰ أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجل المعارف، وأشرف العلوم. فتجد آية الرحمة مختومة بصفات الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر.

ولا بأس هنا أن نسوق بعض الآيات الكريمة في هذا ونشير إلىٰ مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا؛ لأنها من أهم المهمات، ولا يكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها.

قال تعالىٰ: ﴿**فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٩] فذكر إحاطة علمه بعد ذكر خلقه للأرض والسموات يدل علىٰ إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]، فخلقه للمخلوقات وتسويتها علىٰ ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد: من أكبر الأدلة العقلية علىٰ علمه. فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟!

ولما ذكر كلام الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم

لربهم في ذلك، فلما خلق آدم وعلمه أسماء كل شيء مما جعله الله له وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها وأنبأهم آدم بها: ﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: ٣٢]. فاعترفوا لله بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض التي خلقت له وهيئت لنزوله.

وفي هذا: أن الملائكة على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم اعترفوا بأن علومهم تضمحل بجانب علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على علم الله بآدم وما خلق له وما خلق عليه وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ٣٧]، وختمه كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين: (التواب الرحيم) بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبته جليلة لكل أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلى الفطرة السليمة التي يعرفون بها نعمة ربهم فيقدرونها ويشكرونها ويستجيبون لما يدعوهم بها إليه سبحانه، فيرجعون في كل شئونهم وأموالهم إلى ربهم، فيفرح بهم ويزيدهم من فضله ويتوب عليهم ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا**﴾ [التوبة: ١١٨] أي أقبل بقلوبهم عليه، فإنه لولا توفيقه وجذب قلوبهم إلى ذلك بنعمه الكونية والعلمية لم يكن لهم سبيل إلى ذلك، حين استولت عليهم النفس الأمارة وركبها العدو المبين ببهيميتها وجهلها مطية، فإنها لا تأمر إلا بالسوء والفحشاء، إلا من رحم ربك فأعاذه من بهيميتها وجهلها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كماله قدرته وتفرده بالملك، فقال: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ**

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٦ - ١٠٧]. وفي هذا رد على من أنكر النسخ كاليهود فأعلم أن نسخه لما ينسخه هو من آثار قدرته وتمام ملكه وحكمته، فإنه تعالى يتصرف في عباده، ويحكم بينهم بأحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، وهي كلها بالحق والعدل والحكمة البالغة فلا حجة عليه في شيء من ذلك.

ولما قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] أي واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي بعض ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه بالأمور الماضية والمستقبلة ومحيط علمه بما في التوجه إلى القبلة من الحكمة، ومحيط علمه بنيات المستقبلية لكل جهة من الجهات إذا أخطأوا القبلة المعينة عن غير قصد ولا عمد، فحيث ولى المصلي منهم فما قصد إلا وجه ربه.

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فإنه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل، حيث كان اللَّه يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما ويجيب دعاءهما فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة - معنى المستجيب - كما قال الخليل في الآية الأخرى: ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وأما ختم قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] فمعناه: كما أن بعثك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزتك وكمال حكمتك، فإنه ليس من حكمة أحكم الحاكمين أن يترك الخلق سدى وهملاً، لا يرسل إليهم رسولاً.

فحقق اللَّه حكمته ببعثته خاتمًا، كما حقق حكمته ورحمته ببعثه إخوانه المرسلين

من قبله، لئلا يكون للناس على الله حجة.

والأمور كلها: قدريها وشرعيها، لا تقوم إلا بعزة الله ونفوذ حكمه.

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها؛ لينبه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم العظيم عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام.

مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة:٢٠٩] لم يقل: فعليكم من العقوبة كذا، بل قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩] أي: فإذا عرفتم عزتَهُ، وهي قهره وغلبته، وقوته وامتناعه عرفتم حكمته، وهي وضعه الأشياء في موضعها وتنزيلها محالها، أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم؛ لأن من حكمته: معاقبة من يستحق العقوبة وهو المصر على الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لكمال قهره وعزته.

وكذلك لما قال في سورة المائدة: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٣٤]، لم يقل: «فاعفوا عنهم»، أو: «اتركوهم» ونحوها، بل قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن من تاب وأناب فإن الله يغفر له ويرحمه، فيدفع عنه العقوبة ويمده بالقوة على الطاعة فكذلك فاعفوا عنه إذا استحق العفو.

ولما ذكر عقوبة السارق قال في آخرها: ﴿نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨] أي: عَزَّ وَحَكَمَ، فَقَطَعَ يدَ السارقِ، وعزّ وحَكَمَ فعاقب المعتدين شرعًا وقدرًا وجزاءً.

ولما ذكر مواريث الورثة وقدرها في سورة النساء، قال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١]، فكونه عليمًا حكيمًا، يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاخضعوا لما قاله وفصله وحكم به في توزيع الأموال على

مستحقيها الذين يستحقونها بعلم اللَّه وحكمته، فلو وَكَلَ اللَّهُ العبادَ إلىٰ أنفسهم، وقيل لهم: «وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم» لدخلها الجهل والهوىٰ والغي والظلم، وصارت المواريث فوضىٰ وسببًا في إراقة الدماء، وحصل من ذلك من الضرر ما اللَّه به عليم، ولكن تولاها هو وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال، وأقربها للنفع.

ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا؛ فهو كافر؛ لأنه قادح في علم اللَّه وفي حكمته.

ولهذا يذكر اللَّه العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد؛ ليبين للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارجة عن علمه.

ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب، وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنىٰ ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي تعبدوا للَّه بدعائه بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿**لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ**﴾ [الحج: ٥٩]. والآيات المتتابعة التي بعدها. كل واحدة ختمت باسمين كريمين.

فالأولى منها هذه: ختمها بالعلم والحلم يقتضي علمه بنيَّاتهم الجميلة وأعمالهم الجليلة ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم علىٰ ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم، فكأنهم ما فعلوها.

وختم الثانية: بالعفو الغفور، فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلىٰ مقام الفضل، وهو العفو وعدم معاقبة المسيء، وأنه ينبغي لكم أن تعبدوا اللَّه بالتخلق بهذين الوصفين الجليلين لتنالوا عفوه ومغفرته.

وختمُ الآية الثالثة: بالسميع البصير، يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم علىٰ اختلاف الأوقات وتباين الحالات.

وختم الآية الرابعة: بالعلي الكبير؛ لأن علوه المطلق وكبرياءه وعظمته ومجده تضمحل معها جميع المخلوقات ويبطل معها كل ما عبد من دونه، وبإثبات كمال علوه وكبريائه يتعين أنه هو الحق وما سواه هو الباطل.

وختم الآية الخامسة: باللطيف الخبير، الدالين على سعة علمه ودقيق خبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق، بما أنزله من الماء النمير، والخير الغزير.

وختم الآية السادسة: بالغني الحميد، بعدما ذكر ملكه للسموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقهما لحاجة منه لها. فإنه الغني الغنَى المطلق، ولا ليتكمل بها، فإنه الحميد الكامل، وليدلهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، فبغناه تفضل عليهم فسخر لهم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه، لأنه الجميل الذي يفعل كل جميل ويسدي إلى عباده كل جميل، يستوجب عليهم أن يعرفوه: الحميد في أقداره، الحميد في شرعه، الحميد في جزائه فله الحمد المطلق ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً.

وختم الآية السابعة: بالرؤوف الرحيم، فإن من رأفته ورحمته تسخيره المخلوقات لبني آدم وحفظ السموات والأرض وإبقاءها وإمساكها لئلا تزول، فتختل مصالحهم.

ومن رحمته سخر لهم البحار لتجري فيها الفلك في منافعهم ومصالحهم، فرحمهم حيث خلق لهم المسكن وأودع لهم فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أممهم، ختم كل قصة بقوله: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾ [الشعراء: ٦٨] فإن كل قصة تضمنت نجاة النبي وأتباعه،

وذلك برحمة اللَّه ولطفه، وتضمنت إهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته.

وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين، فإنه نجى الرسل وأتباعهم بكمال قوته وعزته ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته ورحمته، ويكون ذكر الرحمة دالاً على عظم جرمهم، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله، فأغلقوها دونهم بتمردهم على اللَّه وكفرهم وشركهم فلم يكن لهم طريق إليها، ولولا ذلك لما حل بهم هذا العقاب الصارم.

وأما قول عيسى عليه السلام: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: «أنت الغفور الرحيم»، لأن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه إلهين من دون اللَّه، فناسب ذكر العزة والحكمة وصار أولى من ذكر الرحمة والمغفرة.

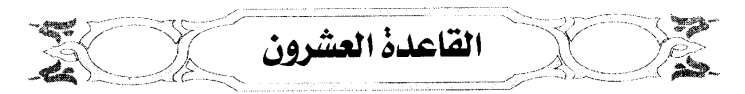
ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة.

مثل قوله: ﴿ **يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقوله: ﴿ **لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

فذلك يدل على أن رحمته سبقت غضبه، وغلبته، وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة ولهذا يخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان.

ولنقتصر على هذه الأمثلة؛ فإنه يعرف بها كيفية الاستدلال بذلك.

* * *



القاعدة العشرون

القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث

وقد وصفه اللَّه تعالىٰ بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث .

فوصفه بأنه محكم في عدة آيات، وأنه ﴿ **أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١] ومعنىٰ ذلك: أنه في غاية الإحكام وقوة الاتساق، وأنه بالغ في الحكمة أقصىٰ غاية. فأخباره كلها حق وصدق، لا تناقض فيها ولا اختلاف.

وأوامره كلها خير وهدىٰ وبركة وصلاح، ونواهيه عن كل ما يعود علىٰ الإنسان بالشرور والضرر والأخلاق الرذيلة والأعمال السيئة. فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله من سورة الزمر: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا** ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: متشابهًا في الحسن والصدق والهدىٰ والحق، ووروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب المصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ، ومعانيه أحسن المعاني، كما وصف ثمرات الزروع والفواكه التي أنعم بها علىٰ الإنسان وجعل فيها كل نافع صالح لجسمه وغذائه، فقال في سورة الأنعام: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ** ﴾ [الأنعام: ١٤١].

ووصف طيبات الجنة وثمراتها الدانية بقوله في سورة البقرة: ﴿ **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾ [البقرة: ٢٥].

ووصفه بأن: ﴿ **مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ** ﴾ [آل عمران: ٧] فهنا وصفه بأنه بعضه هكذا وبعضه هكذا، وأن الذين رسخت قلوبهم وثبتت بالفقه

والفهم عن اللَّه، فثبتوا ثبات الجبال الراسخة، لا تزلزلهم الشبهات ولا الشهوات؛ لأنهم يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكمًا، ويقولون: ﴿ **كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾ أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع فسره الموضع الآخر المحكم، فحصل العلم وزال الإشكال.

ولهذا النوع أمثلة، منها: ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

فإذا اشتبهت آيات على من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله جزافًا لغير سبب كشفت هذا الاشتباه وجلته الآيات الأخر الدالة على أن هدايته لها أسباب يفعلها العبد ويتصف بها، مثل قوله في سورة المائدة: ﴿ **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ** ﴾ [المائدة: ١٦]، وأن إضلاله لعبده له أسباب في العبد، وهو توليه للشيطان، قال في سورة الأعراف: ﴿ **فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [الأعراف: ٣٠] وفي سورة الصف: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ** ﴾ [الصف: ٥].

وإذا اشتبهت آيات على الجبري الذي يرى أن العباد مجبورون على أفعالهم بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالة على أن اللَّه لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة.

كما أن هذه الآيات التي أضاف اللَّه فيها الأعمال إلى العباد حسنها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النفاة، فظنوا أنها منقطعة عن قضائه وقدره، وأن اللَّه ما شاءها منهم ولا قدرها، تليت عليهم الآيات الكثيرة الصريحة الدالة على تناول قدرة اللَّه لكل شيء من الأعيان والأعمال والأوصاف، وأن اللَّه خالق كل شيء.

ومن ذلك: أعمال العباد، وأن العباد ما يشاءون إلا أن يشاء اللَّه رب العالمين.

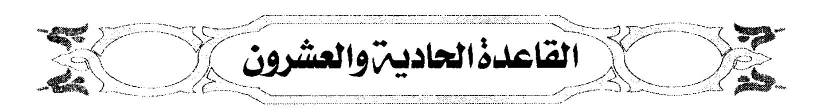
وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب على كل مسلم

تصديقها والإيمان بها كلها. وأنها لا تتنافى، فالطاعات والمعاصي واقعة منهم بقدرتهم وإرادتهم، واللَّه تعالىٰ خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

وما أُجمل في بعض الآيات فسَّرته آيات أخر، وما لم يتوضَّح في موضع توضَّح في موضع آخر.

وما كان معروفًا بين الناس وورد فيه القرآن أمرًا ونهيًا، كالصلاة والزكاة، والزنا والظلم، ولم يفصله، فليس مجملاً، لأنه أرشدهم إلىٰ ما كانوا يعرفون، وأحالهم علىٰ ما كانوا به متلبسين، فليس فيه إشكال بوجه، واللَّه أعلم.

* * *



القاعدة الحادية والعشرون

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان والمكان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعوائد

وهذه قاعدة جليلة المقدار، عظيمة النفع، فإن اللَّه أمر عباده بالمعروف، وهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلاً وعرفًا، ونهاهم عن المنكر، وهو ما ظهر قبحه شرعًا وعقلاً وعرفًا، وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك.

فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال والأوقات كالصلاة والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة والأخلاق الكريمة، من البر والإحسان، والمروءة والشجاعة، والفهم والاعتبار بكل ما يعرض للإنسان ويقع له وعليه. فإنه أمر به في كل وقت، والواجب على الآخرين نظير الواجب على الأولين من هذه الأمة.

وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات كالشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر، ونحوها من كل ما هو ضد المعروف ثبتت في كل زمان ومكان، لا يتغير ولا يختلف حكمه.

وما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة والأحوال، فهو المراد ههنا، فإن اللَّه تعالى يردهم إلى العرف والعادة والمصلحة المتعينة في ذلك الوقت.

وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعين لعباده نوعًا خاصًا من الإحسان والبرِّ، ليعم كل ما تجدد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون الشخص الآخر.

فـالواجب الذي أوجـبـه اللَّه: هو النظر في الإحسان المعروف في وقتك ومكانك، في حق والديك.

ومـثـل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران، والأصحاب، ونحوهم، فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحسانًا ولا يكون معارضًا للمعروف من التشريع.

وكذلك ضده من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلى العُرْف.

وكذلك قوله تعالى في سورة النساء: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [النساء: ١٩]، وفي سورة البقرة: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فرد اللَّه الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما إلى الآخر إلى المعروف المعتاد عند الناس في قُطْرِكَ وبلدِكَ وحالِكَ ومركزك الاجتماعي.

وذلك يختلف اختلافًا عظيمًا لا يمكن إحصاؤه عَدًا.

فدخل ذلك كله في النصوص المختصرة، وهذا من آيات إحكام القرآن وبراهين صدقه.

وقال تعالى: في سورة الأعراف: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا**﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿**يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا**﴾ [الأعراف: ٢٦]، فقد أباح لعباده الأكل والشرب واللباس، ولم يعين شيئًا من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأمكنة، فتتعلق بها الإباحة حيث كانت، ولا ينظر إلى ما كان موجودًا منها وقت نزول القرآن أو غير موجود.

وكذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ [الأنفال: ٦٠] ومن المعلوم: أن السلاح والقوة التي كانت موجودة وقت نزول القرآن غير نوع السلاح والقوة التي وجدتْ بعد ذلك.

فهذا النص يتناول كل مستطاع من القوة في كل وقت بحسبه وبما يناسبه ويليق به .

وكذلك لما قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، لم يعين لنا نوعًا من التجارة، ولا جنسًا، ولم يحدد لنا ألفاظًا يحصل بها الرضىٰ في البيع والتجارة، وهذا يدل علىٰ أن اللَّه أباح لك ما تجري فيه تجارة ما لم ينه عنه الشارع، أو لا يحصل، وأن كل ما حصل به الرضىٰ من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقق الرضىٰ من قول أو فعل انعقدت به المعاوضات والتبرعات والمعاملات .

وفي القرآن من هذا النوع شيء كثير .

* * *



في مقاصد ما يضرب القرآن من الأمثال

اعلم أن القرآن احتوىٰ علىٰ أعلىٰ وأكمل وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوىٰ علىٰ أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلىٰ القلوب بأيسر شيء وأوضحه.

فمن أنواع تعليمه العالي: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري سبحانه في الأمور المهمة، كالتوحيد وحال الموحد والشرك وحال أهله، والأعمال العامة الجليلة، ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة، ليصير القارئ كأنه يشاهد معانيها رأي عين.

وهذا من عناية الباري بعباده ولطفه بهم.

فقد مثَّل اللَّه الوحيَ والعلمَ الذي أنزله علىٰ رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأرض والأودية، وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأرض.

فمنها: أرض طيبة تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب الكثير، كمثل القلوب الفاهمة التي تفهم عن اللَّه ورسوله وَحْيَهُ وكلامَهُ، وتَعْقِلَهُ، وتعمل به علمًا وتعليمًا بحسب حالها، كالأرض بحسب حالها.

ومنها: أرض تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، ينتفع الناس بالماء الذي تمسكه فيشربون ويسقون مواشيهم وأرضهم، كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة، وتلقيه إلىٰ الأمة، ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة والانتفاع بمعانيه والتغذي بغذائه ما عند الأولين.

ومنها: أرض لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، كمثل القلوب التي لا تنتفع بالوحي، لا علمًا ولا حفظًا ولا عملاً.

ومناسبة الأرض للقلوب كما ترىٰ في الظهور، وأما مناسبة تشبيه الوحي بالغيث فكذلك، لأن الغيث فيه حياة الأرض والعباد وأرزاقهم الحسية، والوحي فيه حياة القلوب والأرواح ومادة أرزاقهم المعنوية.

وكذلك مثَّل اللَّهُ كلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي أكلها دائم كل حين بإذن ربها؛ لأن شجرة التوحيد ثابتة بقلب صاحبها لأنها غرس معرفة وتصديق وتفكر وتدبر لآيات اللَّه وتؤتي أُكُلَهَا تقوىٰ وإيمانًا، وإرادة لموجبها، وهو منافعها كل وقت من النيات الطيبة والأخلاق الزكية، والأعمال الصالحة والهدىٰ المستقيم، دائمة في نفع صاحبها وانتفاع الناس به، وهي صاعدة إلىٰ السماء لإخلاص صاحبها وعلمه ويقينه.

ومثَّل اللَّهُ الشركَ والمُشْركَ الذي اتخذ مع اللَّه إلهًا يتعزز به، ويزعم أنه سينال منه النفع ودفع الضرر، بأن اتخاذه هذا في ضعفه ووهنه كالعنكبوت اتخذت بيتًا وهو أوهن البيوت وأوهاها. فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا إلىٰ ضعفها.

كذلك المشرك ما ازداد باتخاذه وليًا نصيرًا من دون اللَّه إلا ضعفًا؛ لأن قلبه انقطع عن اللَّه، ومن انقطع قلبه عن اللَّه حله الضعف من كل وجه، وتعلقه بالمخلوق زاده وهنًا إلىٰ وهَنِه، فإنه اتكل عليه، وظن منه حصول المنافع، فخاب ظنه وانقطع أمله، وأما المؤمن فإنه قوي بقوة إيمانه باللَّه وتوحيده تعلق باللَّه وحده، لأنه يوقن أنه الذي بيده الأمر والنفع ودفع الضرر، وهو المتصرف في أحواله كلها فهو العبد الذي استقام علىٰ صراط مستقيم في أقواله وأفعاله، منطلق الإرداة تحرر عن رق المخلوقين، غير مقيد لهم بوجه من الوجوه، بخلاف المشرك، فإنه كالعبد الأبكم الذي هو كلٌّ وعالةٌ علىٰ مولاه، أينما يوجهه لا يأت بخير، لأن قلبه متقيد

للمخلوفين مسترق لهم، ليس له انطلاق ولا تصرف في الخير ولا شعور به.

ومَثَّلَ المشركَ أيضًا بالذي خر من السماء فتخطفته الطير ومزقته كل ممزق.

ومَثَّلَ في سورة الحج لآلهة المشركين وأوليائهم هؤلاء الذين زعموا أنهم ينفعون فيدعونهم بأنهم كالذباب، بل أضعف من الذباب إذ لو اجتمعوا كلهم على خلق أضعف المخلوقات - وهو الذباب - لم يقدروا باجتماعهم على خلقه، فكيف ببعضهم، فكيف بفرد من مئات الألوف منهم.

وأبلغ من ذلك أن الذباب لو يسلبهم شيئًا لا يقدرون على استخلاصه منه ورده، فهل فوق هذا الضعف ضعف؟ وهل أعظم من هذا الغرور الذي وقع فيه المشرك غرور؟!

وهو مع هذا الغرور وهذا الوهن والضعف مقسم القلب بين عدة آلهة كالعبد بين الشركاء المتشاكسين لا يتمكن من إرضاء أحدهم، دون الآخر، فهو معهم في شر دائم وشقاء متراكم، فلو استحضر المشرك بعض هذه الأحوال الوخيمة لربأ بنفسه عما هو عليه، ولعلم أنه قد أضاع عقله ورأيه بعد ما أضاع دينه.

وأما الموحد، فإنه خالص لربه، لا يعبد إلا خالقه وبارئه ولا يرجو غيره ولا يخشى سواه فقد اطمأن قلبه، واستراح ضميره، وعلم أنه الحق، وأن عاقبته أحمد العواقب، ومآله الخير والفلاح، والسعادة الأبدية، فهو في حياة طيبة، ويطمع في حياة أطيب منها في الدنيا والآخرة.

ومثَّل اللَّهُ الأعمالَ بالبساتين، فذكر العمل الكامل الخالص له الذي لم يعرض له ما يفسده كبستان في أحسن المواضع وأعلاها، تنتابه الرياح النافعة، وقد ضحى وبرز للشمس، وفي خلاله الأنهار الجارية المتدفقة، فإن لم تكن غزيرة فإنها كافية له كالطل الذي ينزل من السماء، ومع ذلك فأرضه أطيب الأراضي وأزكاها.

فمع توفر هذه الشروط لا تسأل عما هو عليه من زهاء الأشجار وطيب الظلال،

ووفور الثمار، فصاحبه في نعيم ورغد متواصل وهو آمن من انقطاعه وتلفه ولثقته ويقينه بحفظ مولاه وسيده وفاطره، ومعبوده له، فهو مطمئن لحفظ وكلاءة أرحم الراحمين، الحي القيوم الذي لا تأخذه سِنَة ولا نوم، فأما الآخر الذي قد ركن إلىٰ غير بارئه وفاطره، فاعتمد علىٰ الميت الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضراً، ووثق به وفوض إليه حراسته وكلاءته في ماله وولده.

فاللَّه يغضب عليه أشد الغضب، ويبعث علىٰ بستانه الأعاصير والآفات المتلفة المهلكة، فلا تغني عنه آلهته وأولياؤه من شيء فيقلب كفيه حسرة وندامة، وقد كبر سنه ونالت منه الشيخوخة والهرم، فضعف عن العمل، وعنده أسرة ضعاف لا مساعدة منهم ولا غناء فيهم.

وكان قد اغتبط به حيث كان مادة حياته وحياة أسرته، فكيف تكون حسرة هذا المغرور؟ وكيف تكون مصيبته؟ وهذا هو الذي جاء بعد العمل الصالح بما يبطله من الشرك والنفاق المعاصي المحرقة، فيا ويله، بعد ما كان بستانه زاكيًا زاهيًا أصبح تالفًا علىٰ عروشه خاويًا، قد أيس من عوده، وبقي بحسرته مع أسرته.

فهذا من أحسن الأمثال وأنسبها، فقد ذكر اللَّه عاقبة من ثبته اللَّه علىٰ الإيمان، والعمل الصالح، وعاقبة من أبطل عمله بما ينافيه ويضاده.

ووجه تشبيه الأعمال بالبساتين: أن البساتين تمدها عدة قوىٰ تطيبها وتجعلها نافعة مثمرة:

منها: طيب الأرض وقوة ما فيها من مواد الأخصاب.

ومنها: يقظة صاحبها وعلمه بفنون استثمار أرضه وبستانه.

ومنها: المياه.

فكذلك الأعمال يمدها طيب عنصر القلب وتخليته من المواد المفسدة، وتحليته بكثرة تفكره في آيات اللَّه الكونية في الأنفس والآفاق، وتدبره لآيات الوحي المنزل

لحياة القلوب الطيبة، وقد جمع العامل جميع شروط قبول العمل من الاجتهاد والإخلاص والمتابعة. فأثمر عمله كل زوج بهيج.

وقد مثَّلَ اللَّهُ عمل الكافر بالسراب الذي يحسبه الظمآن ماءً، فحين يأتيه، وقد اشتد به الظمأ، وأنهكه الإعياء، يجده سرابًا.

ومَثَّلَهُ برماد الشيء المحترق، فجاءته الرياح فذرته فلم تبق منه باقية، وهذا مناسب لحال الكافر وبطلان عمله، فإن كفره ومعاصيه بمنزلة النار المحرقة لكل ما يأتي من عمل، فيدعه ترابًا يظنه بجهله وغبائه وتقليده الأعمىٰ أعمالاً صالحة، فإذا جاءها يرجو ثوابها قدم اللَّه إليها فجعلها هباءً منثورًا.

والسراب هو: ما يتخيله الظمآن في الصحراء المحرقة أمامه ماء، فلا يزال يسعىٰ ويجهد نفسه حتىٰ يهلك ظمأ، فهذا مثل عمل المرتكس في ظلمات التقليد لآبائه وشيوخه يجتهد في العمل الليل والنهار، يعتقده نافعًا، فإذا وصل إليه بالموت لم يجده شيئًا فتقطعت نفسه حسرات، ووجد اللَّه عنده فوَفَّاه حسابه.

كما مثل نفقات المخلصين بذلك البستان الزاهي.

ومَثَّلَ نفقات المرائين بحجر أملس عليه شيء من تراب، فأصابه مطر شديد فتركه صلدًا لا شيء عليه، لأن قلب المرائي لا إيمان فيه ولا تصديق ولا إخلاص، فهو قاس كالحجر، فنفقته حيث لم تصدر عن إيمان، بل عن رياء وحب للسمعة. لم تؤثر في قلبه حياة ولا زكاة، كهذا المطر الذي لم يؤثر في هذا الحجر الأملس شيئًا.

وهذه الأمثال إذا طبقت علىٰ ممثلاتها أوضحتها وبينت مراتبها من الخير والشر، والكمال والنقصان.

ومَثَّلَ اللَّهُ حال المنافقين بحال من هو في ظلمة فاستوقد نارًا من غيره، فلما أضاءت ما حوله وتبين له الطريق ذهب نوره، وانطفأ ضوءه، فبقي في ظلمة عظيمة أعظم من الظلمة التي كان فيها، وهكذا المنافق استنار بنور الإيمان، فلما تبين له

الهدىٰ غلبت عليه الشقوة، واستولت عليه الحيرة، أيبقىٰ علىٰ دين الآباء والشيوخ، أم يخرج عنه إلىٰ دين الهدىٰ والحق وما يقتضيه من الطاعات والأعمال؟ فغلب عليه شيطان التقليد ورده إلىٰ ظلمات ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ [الزخرف: ٢٢]، فذهب عنه نوره أحوج ما يكون إليه، وبقي في ظلمته متحيرًا.

فهم لا يرجعون؛ لأن سنة اللّٰه في عباده أن من بان له الهدىٰ، واتضح له الحق ثم رجع عنه أن يحرم التوفيق بعد ذلك للهداية، لأنه رأىٰ الحق فتركه، وعرف الضلال فاتبعه.

وهذا المثل ينطبق علىٰ المنافقين الذي تبصروا وعرفوا، ثم غلبت عليهم الأغراض الضارة فتركوا الإيمان.

والمثال الثاني هو: قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩] ينطبق علىٰ حال ثانية للمنافقين الضالين المتحيرين الذي يسمعون القرآن فلم يعرفوا المراد منه؛ لأنهم أعرضوا عنه، وكرهوا سماعه اتباعًا لرؤسائهم وسادتهم.

ومَثَّلَ اللَّهُ الحياة الدنيا وزهرتها والاغترار بها بحالة زهرة الربيع تعجب الناظرين، وتغر الجاهلين، فيظنون بقاءها، ولا يؤملون زوالها، فلهوا بها عما خلقوا له، فأصبحت عنهم زائلة وأضحوا لنعيمها مفارقين في أسرع وقت كهذا الربيع إذا أصبح بعد الاخضرار هشيمًا، وبعد الحياة يبسًا رميمًا.

وهذا الوصف قد شاهده الخلق واعترف به البر والفاجر، ولكن سكرة الشهوات وضعف داعي الإيمان اقتضىٰ إيثار العاجل علىٰ الآجل.

* * *



القاعدة الثالثة والعشرون

إرشادات القرآن على نوعين

أحدهما: أن يرشد أمرًا ونهيًا وخبرًا إلى أمر معروف شرعًا أو معروف عرفًا كما تقدم.

والنوع الثاني: أن يرشد العبد إلى استخراج الأشياء النافعة من أصول معروفة، وأن يعمل الفكر في استفادة المنافع منها.

وهذه القاعدة شريفة جليلة القدر.

أما النوع الأول: فأكثر إرشادات القرآن في الأمور الخبرية والأمور الحكمية.

وأما النوع الثاني: وهو المقصود هنا: فإنه دعا عباده في آيات كثيرة إلى التفكر في خلق السموات والأرض، وما خلق الله فيها من العوالم، وإلى النظر فيها، وأخبر أنه سخرها لمصالحنا ومنافعنا، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ**﴾ [الجاثية: ١٣]، فنبه العقول على التفكر فيها، واستخراج أنواع العلوم والفوائد منها.

فإننا إذا فكرنا فيها، ونظرنا حالها، وأوصافها، وانتظامها؛ لأي شيء خلقت؟ ولأي شيء أبقيت؟ وماذا فيها من الآيات؟ وما احتوت عليه من المنافع؟ أفادنا هذا التفكر فيها علمين جليلين:

أحدهما: أننا نستدل بها على ما لله من صفات الكمال والعظمة والحكم البالغة، وما له من النعم الواسعة والأيادي المتكاثرة، وعلى صدق ما أخبر به من المعاد والجنة والنار، وعلى صدق رسله، وحقية ما جاءوا به من عنده.

وهذا النوع قد أكثر أهل العلم من الاستشهاد به، وكل عالم ومحقق قد ذكر منه توصل إليه وما بلغه تفكيره وفهمه، فإن الله أخبر أن الآيات إنما ينتفع بها أولو الألباب، وكل واد يسيل بهدئ القرآن بحسبه.

وهذا أجل العلمين وأعلاهما وأكملهما.

والعلم الثاني: أننا نتفكر فيها لنستخرج منها المنافع المتنوعة.

فإن الله سخرها لنا وجعلها طوع علومنا وأعمالنا، وسلطنا على استخراج جميع ما فيها من المنافع والخيرات الدينية والدنيوية، فذلل لنا أرضها وما ادخر فيها من بركات وكنوز ومعادن ومواد نافعة لنحرثها ونزرعها ونغرسها، ونستخرج منها ما نتخذه لحاجاتنا المعاشية من الصناعات النافعة.

فجميع فنون الصناعات على كثرتها وتنوعها وتفوقها - لا سيما في هذه الأوقات - كل ذلك داخل في تسخيرها لنا. وقد عرفت الحاجة بل الضرورة في هذه الأوقات إلى استنباط المنافع وترقية الصنائع إلى ما لا حد له، وقد ظهر في هذه الأوقات من موادها وعناصرها ما فيه فوائد عظيمة للخلق.

وقد تقدم لنا في قاعدة اللازم: أن ما لا تتم الأمور المطلوبة إلا به فهو مطلوب بطلبها.

وهذا يدل على أن تعلم الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعًا، كما هي مطلوبة لازمة عقلاً، وأنها من الجهاد في سبيل الله، ومن علوم القرآن.

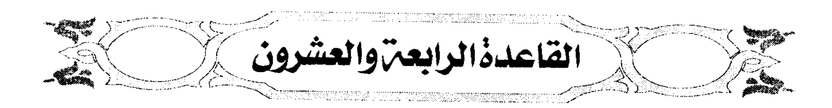
فإن الله نبه العباد أنه جعل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه سخر لهم ما في الأرض، فعليهم أن يسعوا لتحصيل هذه المنافع من أقرب الطرق، وهي لا تعرف إلا بالبحث والتنقيب والتجارب المتكررة والدراسات المناسبة لكل نوع منها.

وهذا من آيات القرآن، وهو أكبر دليل على سعة علم الله، وحكمته ورحمته



بعباده بأن أباح لهم جميع النعم، ويسَّر لهم الوصول إليها بطرق لا تزال تحدث وقتًا بعد وقت . وقد أخبر أن القرآن تذكرة يتذكَّر به العباد في كل زمان ومكان، وأنه هداية لجميع المصالح .

* * *



القاعدة الرابعة والعشرون

التوسط والاعتدال وذم الغلو

القرآن يرشد إلىٰ التوسط والاعتدال، ويذم التقصير والغلو ومجاوزة الحد في كل الأمور.

قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ** ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ** ﴾ [الأعراف: ٢٩] والآيات الآمرة بالعدل والإحسان والناهية عن ضدهما كثيرة.

والعدل في كل الأمور: لزوم الحد فيها، وأن لا يغلو ويتجاوز الحد، كَمَنْ لا يقصّر ويدع بعض الحق.

ففي عبادة اللَّه أمر بالعدل وهو بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ ونهىٰ عنه مجاوزة ذلك، وتعدي الحدود وذم المقصرين، في آيات كثيرة.

فالعبادة التي أمر اللَّه بها ما جمعت الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول. فإذا خلت من الأمرين أو أحدهما، فهي لاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل صلىٰ اللَّه عليهم وسلم أمر بالاعتدال وهو الإيمان بهم، ومحبتهم المُقدَّمة علىٰ محبة الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم اللَّه بها. ونهىٰ في آيات كثيرة عن الغلو فيهم وأن يرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم اللَّه ويجعل لهم من حقوق اللَّه التي لا يشاركه فيها مشارك.

كما نهىٰ عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم أو عدم اتباعهم وذم الغالين فيهم كالنصارىٰ ونحوهم في عيسىٰ، كما ذم الجافين لهم كاليهود حين قالوا في عيسىٰ ما قالوا، وذم من فرق بينهم فآمن ببعض دون بعض وأخبر أن هذا كفر بجميعهم.

وكذلك الأمر في حق العلماء والأولياء فيجب محبتهم ومعرفة أقدارهم، ولا يحل الغلو فيهم وإعطاؤهم شيئًا من حق اللَّه، ولا شيئًا من حق رسوله الخاص ولا يحل مجافاتهم ولا عداوتهم فمن عادىٰ للَّه وليًا فقد بارزه بالحرب.

وأمر بالتوسط في النفقات والصدقات ونهىٰ عن الإمساك والتقصير والبخل، كما نهىٰ عن الإسراف والتبذير.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهىٰ عن الجبن، وذم الجبناء وأهل الخور، وضعفاء النفوس، كما ذم المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلىٰ التهلكة.

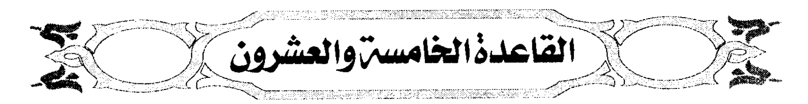
وأمر وحثَّ علىٰ الصبر في آيات كثيرة، ونهىٰ عن الجزع والهلع، والتسخط، كما نهىٰ عن التجبر، والقسوة.

وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين وذوي القربىٰ والجار والإخوان والولاة والحكام والأجراء والطلبة وغيرهم من كل ذي حق هو فرع حق اللَّه سبحانه وتعالىٰ. تفهمه وتعرفه وتؤديه بالمعروف والإحسان إليهم قولاً وفعلاً وذم من قصر في حقهم أو أساء إليهم قولاً وفعلاً، كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتىٰ قدم رضاهم علىٰ رضا اللَّه وطاعتهم علىٰ طاعة اللَّه.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس والحركة والمشي والصوت ونهىٰ عن التجاوز والإسراف في كل ذلك كما حذر أشد التحذير من الترف ونهىٰ عن التقصير الضار بالروح والجسم.

وبالجملة، فإن اللَّه العليم الحكيم أمر بالتوسط في كل شيء بين خلقين ذميمين، تفريط وإفراط، وقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

* * *



القاعدة الخامسة والعشرون

حدود الله: تعديها وقربانها

حدود الله قد أمر بحفظها، ونهىٰ عن تعديها وقربانها.

قال تعالىٰ: ﴿ **وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقال: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا** ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، و﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا** ﴾ [البقرة: ١٨٧].

أما حدود الله: فهي ما حده لعباده من الشرائع الظاهرة والباطنة، التي أمرهم بفعلها، ومن المحرمات التي أمرهم بتركها. فالحفظ لها يكون بأداء الحقوق اللازمة، وترك المحرمات الظاهرة والباطنة.

ويتوقف هذا علىٰ معرفة الحدود علىٰ وجهها، ليعرف ما يدخل في الواجبات كاملة والحقوق، فيؤديها علي ذلك الوجه كاملة، غير منقوصة، وما يدخل في المحرمات ليتمكن من تركها، ولئلا يلبس الشيطان عليه بعضًا منها، ولهذا ذم الله من لم يعرف حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، وأثنىٰ أطيب الثناء علىٰ من عرف ذلك.

وحيث قال تعالىٰ: ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا** ﴾ [البقرة: ١٨٧] كان المراد بها: ما أحله لعباده، وما فصله من الشرائع، فإنه نهىٰ عن مجاوزتها وأمر بملازمتها.

كما أمر بملازمة ما أحله من الطعام والشراب واللباس والنكاح ونهىٰ عن تعدي ذلك إلىٰ ما حرم من الخبائث.

وكما أمر بملازمة ما شرعه من الأحكام في النكاح، والطلاق، والعدة، وتوابع ذلك، ونهىٰ عن تعدي ذلك إلىٰ فعل ما لا يجوز شرعًا.

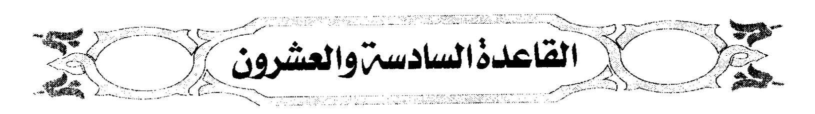
وكما أمر بالمحافظة على ما فصله من أحكام المواريث ولزوم حده، ونهى عن تعدي ذلك، وتوريث من لا يرث، وحرمان من يرث، وتبديل ما فرضه وفصله بغيره.

وحيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]. كان المراد بذلك: المحرمات، فإن قوله: ﴿فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ نهي عن الدنو والقرب منها من أي ناحية من نواحيها فهو نهي عن مقدماتها ونهي عن أسبابها الموصلة إليها والموقعة فيها ونهي عن فعلها من باب أولى.

كما نهاهم عن المحرمات على الصائم، وبين لهم وقت الصيام فقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ وكما حرم على الأزواج أن يأخذوا مما آتوا أزواجهم شيئًا إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، ثم قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ وكما بين المحرمات في قوله: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وفي الخمر والميسر إنهما: ﴿رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

فالخير والسعادة والفلاح في معرفة حدود اللَّه، والوقوف عندها والمحافظة عليها، كما أن أصل كل الشر وأسباب كل العقوبات الجهل بحدود اللَّه، وترك المحافظة عليها، واللَّه أعلم.

* * *



القاعدة السادسة والعشرون

الأحكام في الآيات المقيدة

الأصل: أن الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، إلا في آيات يسيرة.

وهذه قاعدة لطيفة، فإن اللَّه متى رتب في كتابه حكمًا على شيء، وقيده بقيد، أو شرط لذلك شرطًا، تعلق الحكم به على ذلك الوصف، الذي وصفه اللَّه تعالى.

وهذا في القرآن لا حصر له، وإنما المقصود ذكر المستثنى من هذا الأصل الذي يقول كثير من المفسرين، إذا تكلموا عليها: (هذا قيد غير مراد) ففي هذه العبارة نظر!!.

فإن كل لفظة في كتاب اللَّه فإن اللَّه أرادها لما فيها من فائدة، قد تظهر للمتكلم وقد تخفى وإنما مرادهم بقولهم: (غير مراد) ثبوت الحكم بها.

فاعلم أن اللَّه تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع ويذكر أعلى حالة لها ليبرزها لعباده، ليظهر لهم حسنها، إن كانت مأمورًا بها، أو قبحها إن كانت منهيًا عنها.

وعند تأمل هذه الآيات التي بهذا الصدد يظهر لك هذا منها عيانًا.

فمنها: قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ**﴾ [المؤمنون: ١١٧] ومن المعلوم أن من دعا مع اللَّه إلهًا آخر، فإنه كافر، وأنه ليس له برهان مطلقًا، وإنما قيدها اللَّه بهذا القيد بيانًا لشناعة الشرك والمشرك وأن الشرك ليس له دليل شرعي، ولا عقلي قطعًا، والمشرك ليس بيده ما يسوغ له شيئًا من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشركين بما تملكهم لغبائهم وبلادتهم

التقليدية من المعاندة، ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض بهيمية ومقاصد سيئة وتقليد أعمى كالأنعام، وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أن ما هم عليه لا يستسيغه من له أدنى فهم وعقل.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ**﴾ [النساء: ٢٣] مع أن كونها في حجره أو غير حجره ليس شرطًا لتحريمها، فإنها تحرم مطلقًا ولكن ذكر اللَّه هذا القيد تشنيعًا لهذه الحالة، وأنه من أقبح القبيح تزوج الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته.

فذكر اللَّه المسألة متجلية بثياب قبحها لينفّر عنها ذوي الألباب، مع أن التحريم لم يعلق بمثل هذه الحالة، فالأنثى إما أن تكون مباحة مطلقًا، أو محرمة مطلقًا سواء كانت عند الإنسان أم لا. كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ**﴾ [الإسراء: ٣١]، و﴿**مِّنْ إِمْلاقٍ**﴾ [الأنعام: ١٥١] مع أن من المعلوم النهي عن قتل الأولاد على أي حال، فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حاله جامعة للشر كله: كونه قتل بغير حق، وقتل من جبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقة لا نظير لها، وكون ذلك صادرًا عن التسخط لقدر اللَّه، وإساءة الظن باللَّه.

فأولئك الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر والإملاق إنما يقتلونهم تبرمًا وتسخطًا بقدر اللَّه فهم قد تبرموا بالفقر هذا التبرم، وأساءوا ظنونهم بربهم حيث ظنوا أنهم إن أبقوهم زاد فقرهم، واشتدت فاقتهم فصار الأمر بالعكس.

وأيضًا فإنه إذا كان منهيًا عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الفقر وحدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى.

وأيضًا ففي هذا: بيان للحالة الموجوده غالبًا عندهم فالتعرض لذكر الأسباب الموجودة الحادثة يكون أجلى وأوضح للمسائل.

وأما قوله تعالى في الرجعة : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. فمن العلماء من قال : إنه من هذا النوع ، وأنه يستحق ردها سواء أراد المراجع الإصلاح أو لم يرده .

فيكون ذكر هذا القيد حثًا على لزوم ما أمر اللَّه به ، من قصد الإصلاح وتحريم إمساكها وردها إلى زوجيته على وجه المضارة . وإن كان يملك ردها ، كقوله تعالى : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [البقرة: ٢٣١] .

ومن العلماء من جعل هذا القيد على الأصل العام ، وأن الزوج لا يملك رجعة زوجته في عدتها إلا إذا قصد الإصلاح ، فأما إذا قصد ضد ذلك فلا حق له في رجعتها وهذا هو الصواب .

ومنها: قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٣] مع أن الرهن يصح حضراً وسفراً ، ففائدة هذا القيد : أن اللَّه ذكر أعلى الحالات ، وأشد الحاجات للرهن ، وهي هذه الحالة في السفر ، والكاتب مفقود ، والرهن مقبوض ، فأحوج ما يحتاج الإنسان للرهن في هذه الحالة التي تعذرت معها التوثيقات إلا بالرهن المقبوض ، وكما قاله الناس في قيد السفر فكذلك على الصحيح في قيده بالقبض وأن قبضه ليس شرطًا لصحته ، وإنما ذلك للاحتياط ، وزيادة الاستيثاق ، وكذلك فقد الكاتب .

ومنها: قوله : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] مع أن الحق يثبت بالرجل فقط والمرأتين فقط ، مع وجود الرجلين ، لكن ذكر اللَّه أكمل حالة يحصل بها الحفظ للحقوق ، بدليل أن النبي ﷺ ، قضى بالشاهد الواحد مع اليمين ، والآية ليس فيها ذلك لهذه الحكمة ، وهو أن الآية أرشد اللَّه فيها عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم ، لتمام راحتهم .

وأما قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩] فإنها من أصل هذه القاعدة، ويظن بعض الناس أنها من هذا النوع، وأنه يجب التذكير، نفعت الذكرى أو لم تنفع، لكن قصر الآية على هذا غلط، فإن الآية تعطي أيضًا ـ لمن تدبر ـ أن الذكرى إذا كان يحصل بها الخير كله أو بعضه أو يزول بها الشر كله أو بعضه وجب توجيهها.

فأما إذا كان ضرر التذكير أعظم من نفعه، فإنه منهي عنه في هذه الحال، كما نهى الله عن سب آلهة المشركين إذا كان وسيلة لسب الله، وكما ينهى عن الأمر بالمعروف إذا كان يترتب عليه شر أكبر أو فوات خير أكثر من الخير الذي يؤمر به.

وكذلك النهي عن المنكر إذا ترتب عليه ما هو أعظم منه شرًا، فالتذكير في هذه الحال غير مأمور به، بل منهي عنه، وكل هذا من تفصيل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] فعلم أن هذا قيد مراد، ويرتبط الحكم به ثبوتًا وانتفاءً، والله أعلم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١] مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق، فهذا نظير ما ذكره في الشرك، وأن هذا إنما هو لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة فيها لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرمًا، وأشدهم إساءة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١] فليست من هذا النوع وإنما هي من النوع الأول الذي هو الأصل، و﴿الحق﴾ الذي قيدها الله به جاء مفسرًا في قوله ﷺ: «**النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه، المفارق للجماعة**».

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣] مع أن فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر، فإنه إذا فقد جاز التيمم حضرًا وسفرًا، لكن ذكر السفر لبيان الحالة

التي يغلب أن يفقد فيها الماء، وأما الحضر فإنه يندر فيه عدم الماء جداً.

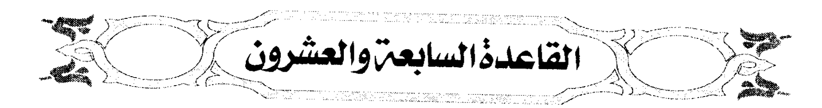
وظن بعض العلماء أن السفر وحده مبيح للتيمم، وإن كان الماء موجوداً، وهو في غاية الضعف، وما ثبت من هدي الرسول ﷺ وأصحابه والأئمة مخالف لهذا القول.

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ [النساء: ١٠١] مع أن الخوف ليس شرطاً لصحة القصر ومشروعيته بالاتفاق ولما سئل النبي ﷺ، عن هذا أجاب: «**صدقة تصدق اللَّه بها عليكم، فاقبلوا صدقته**»، ويعني بصدقة اللَّه: إحسانه في كل زمان ومكان لا يتقيد بخوف ولا غيره.

ومن العلماء من قال: إن هذا القيد من القسم الأول وأن القصر التام ـ وهو قصر العدد وقصر الأركان والهيئات ـ شرطه اجتماع السفر والخوف كما في الآية، فإن وجد الخوف وحده لم يقصر عدد الصلاة وإنما تقصر هيئاتها وصفاتها، وإن وجد السر وحده لم تقصر هيئتها وشروطها وإنما يقصر عددها، ولا ينافي هذا كلام النبي ﷺ فإنهم إنما سألوه عن قصر العدد فقط فأجابهم بأن الرخصة فيه عامة في كل الأحوال.

وهذا تقرير مليح موافق لظاهر الآية غير مخالف لحديث الرسول فيتعين الأخذ به.

* * *



القاعدة السابعة والعشرون

المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع عند الحاجة إليها

وهذه القاعدة جليلة النفع، عظيمة الوقع.

وذلك أنه ما من موضع يسوق اللَّه فيه حكمًا من الأحكام أو خبراً من الأخبار فيتشوف الذهن فيه إلى شيء آخر، إلا وجدت اللَّه قرن به ذلك الأمر الذي تشوفت إليه الأذهان، فيبينه أحسن بيان، وهذا أعلى أنواع التعليم، فإنه لا يبقى إشكالاً إلا أزاله، ولا احتمالاً إلا أوضحه، وهذا يدل على عظيم فضل اللَّه وبالغ حكمته، وهو في القرآن كثير جداً.

ولنذكر بعض الأمثلة توضح هذه القاعدة:

فمن ذلك: قوله تعالى - في سورة النمل -: ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا**﴾ [النمل: ٩١].

لما كان تخصيص مكة بالذكر ربما يوقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها أزال هذا الوهم بقوله: ﴿**وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ**﴾.

ومنها: قوله تعالى - في سورة هود -: ﴿**فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ**﴾ [هود: ١٠٨] لما كان قد يقع في الذهن أنهم على بعض حجة وبرهان في شركهم أبان بقوله: ﴿**مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ**﴾: أن ضلالهم إنما هو عن تقليد أعمى لآبائهم وجهل مطبق، ثم لما كان قد يتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم وعلى بعض يقين من شركهم وكفرهم بدّدَ ذلك بقوله: ﴿**وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ..**﴾ إلى قوله: ﴿**وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**﴾ [هود: ١٠٩].

فبين بهذا أنهم ليسوا على شيء من اليقين في دينهم ولا اطمئنان إلى جزائهم في

الآخرة بما يحبون، فإن من المحال أن يؤتي العزيز الحكيم الجزاء في الآخرة بما يهوى الضالون، ولما قال في سورة النساء: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥] ربما يظن الظان أنهم لا يستوون مع القاعدين ولو كان القاعدون معذورين، أزال هذا الوهم بقوله: ﴿غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥].

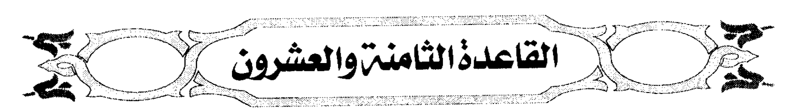
وكذلك لما قال: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ ربما توهم أحد أن المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة على أي حال، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ ثم لما كان ربما يتوهم أن هذا الأجر يستحق بظاهر هذا العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، أزال الوهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

ومنها: قوله في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ ربما وقع في الذهن أنهم قد يصلحون، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨] أي الخير فيهم أصلاً مع شرهم العظيم.

ومنها: أنه قال في عدة مواضع: ﴿وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ فربما توهم أحد أنهم وإن لم يسمعوا فلعلهم يفهمون الإشارة، فأزال هذا الاحتمال بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] فهذه الحالة لا تقبل سماعًا ولا رؤية لتحصل الإشارة، وهذا نهاية الإعراض.

ومنها: قوله: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ ربما توهم أحد أن هدايته تأتي جزافًا من غير سبب، فأزال هذا بقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] أي بمن يصلح للهداية لزكائه وخيره، وإقباله على الهداية وطلبها بالتفكر في آيات الله، والشوق إلى فهم ما يوحى به إلى رسله فأبان أن هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها، ومن كان فقيهًا غير مقلد رأى من هذا شيئًا كثيرًا.

* * *



في ذكر الأوصاف الجامعة التي وصف اللّه بها المؤمن

لما كان الإيمان أصل كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة، وبفقده يفقد كل خير ديني ودنيوي وأخروي، أكثر اللّه من ذكره في القرآن جدًا، أمرًا به، ونهيًا عن ضده، وترغيبًا فيه، وبيانًا لأوصاف أهله وما لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

فإذا كان المقام مقام خطاب للمؤمنين بالأمر والنهي أو مقام إثبات الأحكام الدنيوية بوصف الإيمان، فإنها تتناول كل مؤمن، سواء كان متممًا لواجبات الإيمان وأحكامه، أو ناقصًا شيئًا منها.

وأما إن كان المقام مقام مدح وثناء، وبيان الجزاء الكامل للمؤمن: فإن المراد بذلك المؤمن حقًا والجامع لكل معاني الإيمان.

وهذا هو المراد بيانه هنا: فنقول:

وصف اللّه المؤمن في كتابه بتصديقه وإذعانه لجميع عقائد الدين وبحب ما يحبه اللّه ويرضاه، وبالعمل به، والتباعد والحذر من كل ما يبغضه اللّه، وبإدامة الإنابة والرجوع إلى اللّه في كل حال، وكان لإيمانه أطيب الثمرات في الأعمال والأخلاق.

فوصف المؤمنين بالإيمان بالأصول الجامعة، وهو الإيمان باللّه، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وأنهم يؤمنون بكل ما جاء به الرسل كلهم، ويؤمنون بالغيب، ووصفهم بالسمع والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا.

ووصفهم بأنهم: **﴿ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ**

هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

ووعدهم بأنعم وأطيب البشرى: ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

ووصفهم بأن جلودهم تقشعر وعيونهم تفيض من الدمع، وقلوبهم تلين وتطمئن لآيات اللَّه وذكره، وبأنهم يخشون ربهم بالغيب والشهادة، وأنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلىٰ ربهم راجعون.

ووصفهم بالخشوع في أحوالهم عمومًا. وفي الصلاة خصوصًا وأنهم عن اللغو معرضون، وللزكاة فاعلون، ولفروجهم حافظون إلا علىٰ أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وزنهم يشهاداتهم قائمون ولأماناتهم وعهدهم راعون.

ووصفهم بأنهم يمشون على الأرض هونًا. وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلامًا، وأنهم يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، وأنهم يقولون بدعائهم وأعمالهم وأخلاقهم: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، وأنهم مقتصدون وسط في كل شئونهم وإذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا، وأنهم لا يدعون مع اللَّه إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق ولا يزنون، وأنهم لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كرامًا، وأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا، بل خروا سجدًا وبكيًا، ويخرون للأذقان يبكون وتزيدهم رؤية آيات اللَّه وسماعها خشوعًا وإخباتًا، وأنهم يطلبون السمو والعلو دائمًا فلا يرضون إلا أن يكونوا أئمة في الهدىٰ والإيمان والتقوىٰ ومكارم الأخلاق، وأنهم يُقدِّرون الواجب عليهم ومسئوليتهم أمام اللَّه عما استرعاهم من الأولاد والزوجات وغيرهم، فيحسنون القيام عليهم في تأديبهم وتربيتهم ليكونوا قرة عين لهم.

ووصفهم باليقين الكامل الذي لا ريب فيه، وبالجهاد بأموالهم وأنفسهم في

سبيل اللَّه .

ووصفهم بالإخلاص لربهم في كل ما يأتون ويذرون .

ووصفهم بمحبة المؤمنين والدعاء للسابقين واللاحقين منهم ، وأنهم مجتهدون في إزالة الغل من قلوبهم على المؤمنين ، وبأنهم يتولون اللَّه ورسوله وعباده المؤمنين ، ويتبرءون من موالاة جميع أعداء الدين ، وبأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويطيعون اللَّه ورسوله ، في كل أحوالهم .

فجمع اللَّه لهم بين العقائد الحقة واليقين الكامل ، والإنابة التامة التي آثارها الانقياد لفعل المأمورات ، وترك المنهيات ، والوقوف على الحدود الشرعيات .

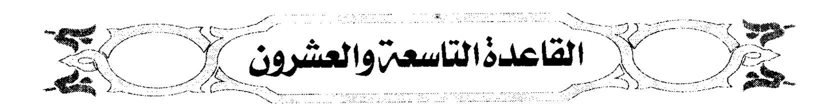
فهذه الأوصاف الجليلة هي وصف المؤمن المطلق الذي سلم من أسباب العقاب ، واستحق جميل الثواب ، ونال كل خير رتب على الإيمان ، فإن اللَّه رتب على الإيمان في كتابه من الفوائد والثمرات ما لا يقل عن مائة فائدة ، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها .

رتب على الإيمان نيل رضاه الذي هو أكبر من كل شيء ، ورتب عليه دخول الجنة والنجاة من النار ، والسلامة من عذاب القبر ومن أهوال القيامة ، والبشرى الكاملة في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، والثبات في الدنيا على الإيمان والطاعات وعند الموت وفي القبر ورتب عليه الحياة الطيبة في الدنيا والرزق الكريم والحسنة وتيسيره لليسرى وتجنيبه للعسرى ، وطمأنينة القلوب ، وراحة النفوس والقناعة التامة ، وصلاح الأحوال ، وصلاح الذرية والصبر عند المحن والمصائب .

وحمل اللَّه عنهم الأثقال ومدافعة اللَّه عنه جميع الشرور ، والنصر على الأعداء ورفع المؤاخذة عند النسيان والخطأ ، وأن اللَّه قد وضع عنهم الآصار والأغلال التي تكبل بها المقلدون الغافلون ، الأشقياء المعذبون في الدنيا والآخرة بكفرهم وشركهم .

فالإيمان أكبر وسيلة للقرب من اللَّه والقرب من رحمته، ونيل ثوابه، وأكبر وسيلة لمغفرة الذنوب، وإزالة الشدائد وتخفيفها.

* * *



القاعدة التاسعة والعشرون

في الفوائد التي يجتنيها العبد من معرفته وفهمه لأجناس علوم القرآن

وهذه القاعدة تكاد تكون هي المقصود الأعظم في علم التفسير وذلك أن القرآن مشتمل على علوم متنوعة، وأصناف جليلة من العلوم، فعلى العاقل الناصح لنفسه أن يتدبر القرآن ويعرف كل نوع منها، ويعمل على هذا ويتتبع الآيات الواردة فيه، فيحصل المراد منها: علمًا وتصديقًا، وحالاً، وعملاً.

فأجل علوم القرآن على الإطلاق: علم التوحيد، وما للَّه من صفات الكمال، فإذا مرت عليه الآيات في توحيد اللَّه وأسمائه وصفاته أقبل عليها، فإذا فهمها وفهم المراد بها أثبتها للَّه على وجه لا يماثله فيه أحد، وعرف أنه ليس له مثيل في ذاته ولا في صفاته، وامتلأ قلبه من معرفة ربه وحبه بحسب العلم بكمال اللَّه وعظمته، فإن القلوب مجبولة على محبة الكمال، فكيف بمن له الكمال المطلق؟ ومنه جميع النعم الجزيلة، ويعرف أن أصل الأصول هو: الإيمان باللَّه، وأن هذا الأصل يقوى ويكمل بحسب معرفة العبد لربه، وفهمه لمعاني صفاته بما يشهد من آثارها عليه وعلى الناس، فيقدر اللَّه حق قدره ويشكره أعظم الشكر.

وأيضًا يعرف أنه بتكميله هذا العلم تكمل علومه وأعماله، فإنه هو أصل العلم وأصل التعبد.

ومن علوم القرآن: صفات الرسل وأحوالهم، وما جرى لهم وعليهم، مع من وافقهم ومن خالفهم، وما كانوا عليه من الأوصاف الراقية والأخلاق الكريمة فإذا فهم هذه الآيات ازدادت معرفته ومحبته لهم، خصوصًا إمامهم وسيدهم محمد

ﷺ، فيقتدي بأخلاقهم وأعمالهم جهد طاقته ويفهم أن الإيمان بهم تمامه وكماله: بمعرفته التامة بأحوالهم ومحبتهم واتباعهم، وفي القرآن من نعوتهم الشيء الكثير الذي يحصل به تمام الهدىٰ.

ويستفيد أيضًا الاقتداء بشرائعهم الحكيمة وإرشاداتهم للخلق وحسن خطابهم، ولطف جوابهم وتمام صبرهم، فليس القصد من قصصهم أن تكون سمرًا، وإنما القصد أن تكون عبرًا.

ومن علوم القرآن: علم أهل السعادة والخير، وأهل الشقاوة والشر، والفرقان بين هؤلاء وهؤلاء، وبيان الصفات والطرق التي وصل بها هؤلاء إلىٰ دار النعيم، ووصل بها أولئك إلىٰ دار الجحيم، وفي معرفته لذلك فوائد الترغيب في الاقتداء بالأخيار، والترهيب من أحوال الأشرار؛ فأحب الأخيار ووالاهم، وأبغض الفجار وعاداهم، فإن ذلك من أوثق عرىٰ الإيمان وكلما كان أعرف لأحوالهم تمكن من هذه المقاصد.

ومن علوم القرآن: علم الجزاء في الدنيا والبرزخ والآخرة، علىٰ أعمال الخير وأعمال الشر.

وفي ذلك مقاصد جليلة: الإيمان بكمال عدل اللَّه وسعة فضله والإيمان باليوم الآخر، فإن تمام الإيمان بذلك يتوقف علىٰ معرفة ما يكون فيه، والرغبة في الأعمال التي رتب اللَّه عيها الجزاء الجميل، والرهبة من ضدها.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي.

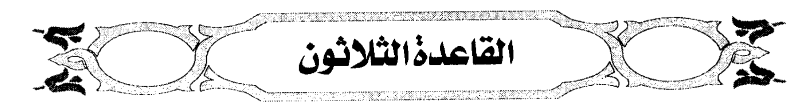
وفي ذلك مقاصد جليلة: معرفة حدود ما أنزل اللَّه علىٰ رسوله فإن العباد محتاجون إلىٰ معرفة ما أمروا به وما نهوا عنه، والعمل بذلك، والعلم سابق للعمل، وطريق ذلك: إذا مر علىٰ القارئ نص فيه أمر بشيء عرفه، وفهم ما يدخل فيه وما لا يدخل فيه، وحاسب نفسه: هل هو قائم بذلك كله أو بعضه أو تاركه؟

فإن كان قائمًا به فليحمد اللّه، ويسأله الثبات والزيادة من الخير، وإن كان مقصرًا فيه فليعلم أنه مطالب به، وملزم به، فليستعن باللّه على فعله، وليجاهد نفسه على ذلك.

وكذلك في النهي ليعرف ما يراد منه، وما يدخل في ذلك، ثم لينظر إلى نفسه، فإن كان قد ترك ذلك فليحمد اللّه على توفيقه، ويسأله أن يثبته على ترك المناهي كما يسأله الثبات على فعل الطاعات، ليجعل الداعي له على الترك امتثال طاعة اللّه ليكون تركه عبادة، كما كان فعله للطاعة عبادة، وإن كان غير تارك له، فليبادر بالتوبة إلى اللّه توبة نصوحًا جازمة، لا تمنعه منها الشهوات الدنية التي تدعو إليها النفس الأمارة بالسوء.

فمن كان عند هذه المطالب وغيرها عاملاً على هذه الطريقة فإنه ثابت على الصرط المستقيم من الاسترشاد بكتاب اللّه.

* * *



أركان الإيمان بالأسماء الحسنى ثلاثة: إيماننا بالاسم، وبما دل عليه من المعنى، وبما تعلق به من الآثار

وهذه القاعدة العظيمة: خاصة بأسماء الرب سبحانه وتعالى.

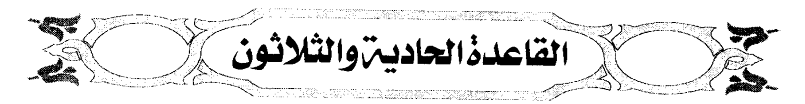
وفي القرآن من الأسماء الحسنى ما ينيف عن ثمانين اسمًا ـ كررت في آيات متعددة، بحسب ما يناسب المقام، كما تقدم بعض الإشارة إليها.

وهذه القاعدة تنفعك في كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالخلق والأمر، والثواب والعقاب. فعليك أن تؤمن بأنه عليم، وذو علم عظيم، محيط بكل شيء، قدير، وذو قدرة وقوة عظيمة، ويقدر على كل شيء، ورحيم وذو رحمة عظيمة، ورحمته وسعت كل شيء والثلاثة متلازمة.

فالاسم دل على الوصف، وذلك دل على المتعلق فمن نفى واحدًا من هذه الثلاثة فلن تتم معرفته باللَّه ولن يتم إيمانه بأسماء الرب وصفاته، الذي هو أصل التوحيد.

ولنكتف بهذا الأنموذج، ليعرف أن الأسماء كلها على هذا.

* * *



القاعدة الحادية والثلاثون

ربوبية اللَّه في القرآن على نوعين: عامة، وخاصة

كثر في القرآن ذكر ربوبية الرب لعباده، ومتعلقاتها، ولوازمها، وهي على نوعين:

ربوبية عامة: يدخل فيها جميع المخلوقات: برها، وفاجرها بل مكلفوها وغير المكلفين، حتى الجمادات، وهي أنه تعالى المنفرد بخلقها ورزقها وتدبيرها، وإعطائها ما تحتاج إليه في بقائها. وحصول منافعها ومقاصدها والمقاصد منها. فهذه التربية لا يخرج عنها أحد.

والنوع الثاني: في تربيته لأصفيائه وأوليائه، فيربيهم بالوحي ينزل لهم بغيث العلم ويهديهم إلى الإيمان، ويوفقهم لتكميله ويُكملهم بالأخلاق الجميلة، ويدفع عنهم الأخلاق الرذيلة وييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى، وحقيقتها: التوفيق لكل خير، والحفظ من كل شر، وإنالة المحبوبات العاجلة والآجلة، وصرف المكروهات العاجلة والآجلة.

فحيث أطلقت ربوبيته تعالى، فإن المراد بها المعنى الأول مثل قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ونحو ذلك.

وحيث قيدت بما يحبه ويرضاه، أو وقع السؤال بها من الأنبياء وأتباعهم، فإن المراد بها النوع الثاني: وهو متضمن للمعنى الأول وزيادة ولهذا تجد أدعية الأنبياء وأتباعهم في القرآن باسم الرب غالبًا فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة، فملاحظة هذا المعنى نافعة أعظم النفع للعبد.

ونظير هذا المعنى الجليل: أن اللَّه أخبر في عدة آيات أن الخلق كلهم عباده

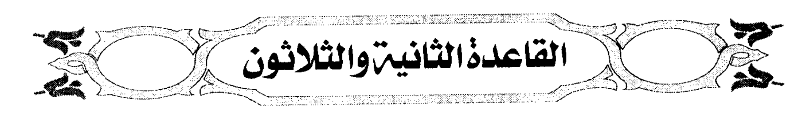
وعبيده: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾. فكلهم مماليكه، وليس لهم من الملك والأمر شيء، لا في أنفسهم ولا في غيرهم، ويخبر في بعض الآيات أن عباده بعض خلقه كقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ ثم ذكر صفاتهم الجليلة كقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، وفي قراءة: ﴿عباده﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

فالمراد بهذا النوع من قاموا بحقوق عبوديتهم له بصفة ربوبيته، وأخلصوا له الدين على اختلاف طبقاتهم.

فالعبودية الأولى: يدخل فيها البر والفاجر.

والعبودية الثانية: صفة الأبرار ولكن الفرق أن الربوبية وصف الرب وفعله. والعبودية وصف العبيد وفعلهم.

* * *



القاعدة الثانية والثلاثون

الأمر بالشيء نهي عن ضده

إذا أمر اللَّه بشيء كان ناهيًا عن ضده، وإذا نهىٰ عن شيء كان آمرًا بضده، وإذا أثنىٰ علىٰ نفسه أو علىٰ أوليائه وأصفيائه بنفي شيء من النقائص، كان ذلك إثباتًا للكمال.

وذلك: أنه لا يمكن امتثال الأمر علىٰ وجه الكمال إلا بترك ضده، فحيث أمر بالتوحيد والصلاة والزكاة والحج وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والعدل والإحسان، كان ناهيًا عن الشرك، وعن ترك الصلاة، وترك الزكاة، وترك الصوم، وترك الحج، وعن العقوق، والقطيعة، والظلم والإساءة.

وحيث نهىٰ عن الشرك والصلاة - إلىٰ آخر المذكورات - كان آمرًا بالتوحيد، وفعل الصلاة وغيرها.

وحيث أمر بالصبر والشكر، وإقبال العبد إلىٰ اللَّه إنابة ومحبة، وخوفًا ورجاء، كان ناهيًا عن الجزع والسخط، وكفران النعم، وإعراض القلب عن اللَّه وهلعه، وجزعه وتعلقه بغير اللَّه خوفًا ورجاءً، وحيث نهى عن الجزع، وكفران النعم، وغفلة القلب، كان آمرًا بالصبر وغيره من المذكورات.

وهذا ضرب مثل: وإلا فكل الأوامر والنواهي علىٰ هذا النمط وكذلك المدح لا يكون إلا بإثبات الكمالات، فحيث أثنىٰ علىٰ نفسه، وذكر تنزهه عن النقائص والعيوب، كالنوم والسِّنة واللغوب، والموت، وخفاء شيء في العالم من الأعيان والصفات وغيرها، والظلم والعبث واللعب وخلق شيء باطلاً، وأن يكون عطاؤه أو جزاؤه جزافًا بلا حكمة، فَلِتَضَمُّن ذلك الثناء عليه بكمال حياته، وكمال

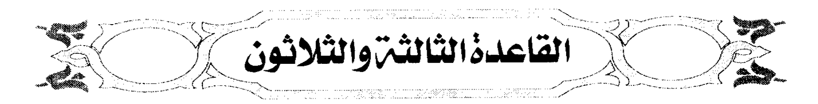
قيوميته، وقدرته، وسعة علمه، وكمال عدله وحكمته، لأن العدم المحض لا كمال فيه، حتى ينفى تكميلاً للكمال.

وكذلك إذا نفى عن كتابه الريب والاختلاف والشك، والإخبار بخلاف الواقع، كان ذلك لكمال دلالته على اليقين في جميع المطالب، واشتماله على الحق في كل الأحكام، والصدق الخالص، وانتظامه لكل ما يهدي إلى الرشد وإلى الصراط المستقيم.

وكذلك إذا نفى عن رسوله الكذب، والتقول على اللّه، واتباع الهوى والغي والضلال والجنون والسحر، والشعر، ونحوها. كان ذلك لأجل إثبات كمال صدقه، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وكمال عقله واستحالة كل ما يقدح في كمال نبوته ورسالته.

فتفطن لهذه القاعدة في كل ما يمر عليك من الآيات القرآنية في هذه الأمور وغيرها، تنل خيرًا كثيرًا، واللّه أعلم.

* * *



القاعدة الثالثة والثلاثون

المرض في القرآن ـ مرض القلوب ـ نوعان: مرض شبهات وشكوك، ومرض شهوات وفسوق

والطريق إلى تمييز هذا من هذا، مع ورودها في القرآن، يدرك من السياق، فإن كان هذا السياق في ذم المنافقين والمخالفين في شيء من أمور الدين كان مرض الشكوك والشبهات، وإن كان السياق في ذكر المعاصي والميل، كان مرض الشهوات.

ووجه انحصار المرض في هذين النوعين: أن مرض القلب خلاف صحته، وصحة القلب الكاملة بشيئين: كمال علمه ومعرفته ويقينه، وكمال إرادته وحبه لما يحبه اللَّه ويرضاه.

فالقلب الصحيح: هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف الباطل واجتنبه، فإن ما يزعمه علمًا إنما هو شكوك وعنده شبهات تعارض ما أخبر اللَّه به في أصول الدين وفروعه، كان علمه منحرفًا وكان مرض قلبه على حسب ذلك قوة وضعفًا، وإن كانت إرادته ومحبته مائلة لشيء من معاصي اللَّه، كان ذلك انحرافًا في إرادته ومرضًا وهما متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر فلا يغلب على العبد الشبهات إلا بفساد علمه باللَّه وعدله وقضائه وحكمته، وشرعه وجزائه، ولا يغلب عليه الشهوات إلا بفساد نفسه وغلبة شهوات الدنيا ورياستها وحظوظها على ما عند اللَّه والدار الآخرة. وإنما قد يكون أحدهما أبرز من الآخر.

فمن النوع الأول: قوله تعالى عن المنافقين في سورة البقرة: ﴿**فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ**﴾، وهي التقاليد والشكوك والشبهات المعارضة لرسالة محمد ﷺ: ﴿**فَزَادَهُمُ**

اللَّهُ مَرَضًا﴾، عقوبة على ذلك المرض الناتج عن أسباب متعددة، كلها منهم، وهم فيها غير معذورين.

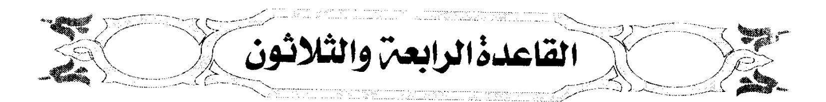
ونظير هذا: قوله تعالى في سورة براءة: **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾**.

وكذلك قوله تعالى في سورة الحج: **﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾** فإن مريض القلب من الشكوك وضعف العلم أقل شيء يريبه، ويؤثر فيه، ويفتنه.

ومن الثاني: قوله تعالى في سورة الأحزاب: **﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾** أي مرض شهوة، وإرادة للفجور. فالمريض بذلك: أقل شيء من أسباب الافتتان يوقعه في الفتنة، طمعًا أو فعلاً، فكل من أراد شيئًا من معاصي اللَّه فقلبه مريض مرض شهوة ولو كان صحيحًا لاتصف بصفات الأذكياء الأبرياء الأتقياء الموصوفين بقوله في سورة الحجرات: **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾**.

فمن كان قلبه على هذا الوصف الذي ذكره اللَّه، فليحمده على هذه النعمة، التي لا يقاومها شيء من النعم، وليسأل اللَّه الثبات على ذلك، ويأخذ في أسباب الزيادة من فضل اللَّه ورحمته.

* * *



القاعدة الرابعة والثلاثون

دل القرآن في عدة آيات أن من ترك ما ينفعه مع الإمكان، ابتلي بالاشتغال بما يضره، وحرم الأمر الأول:

وذلك أنه في عدة آيات: أن المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن، ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم: أنهم بشر، ابتلوا بالانقياد، لكل مارج العقل والدين، ولما عرض عليهم الإيمان أول مرة فعرفوه، ثم تركوه؛ قَلَّبَ اللَّهُ قلوبهم، وطبع عليها، فلا يؤمنون حتىٰ يروا العذاب الأليم، ولما بين لهم الصراط المستقيم وزاغوا عنه اختياراً ورضا بطريق الغي وكرهاً لطريق الهدىٰ والرشد، عوقبوا بأن أزاغ اللَّه قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم خاسرين في كل سعيهم، ولما أهانوا آيات اللَّه ورسله أهانهم اللَّه بالعذاب المهين.

ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة لكل مبطل.

ولما منعوا مساجد اللَّه أن يذكر فيها اسمه وسعوا في خرابها لم يكن لهم بعد ذلك أن يدخلوها إلا خائفين.

﴿ **وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ** ﴾.

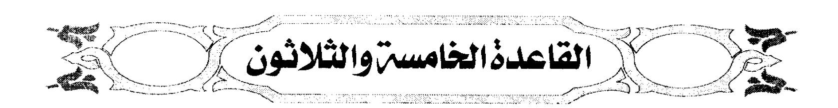
والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا، يخبر اللَّه فيها أن العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي الطريق المستقيم ثم إذا تركها بعد أن عرفها، ونكص عنها بعد أن سلكها عوقب بإبعاده في طريق ضلاله الذي ارتضاه لنفسه وترك به طريق الهدىٰ.

فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادراً في طريق غوايته ممعنًا في سبيل ضلالته

جزاءً على فعله، كقوله في اليهود في سورة البقرة: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾.

فإنهم لما تركوا اتباع كتب اللَّه المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح كل شئونهم، وإسعادهم، وهي خير ما يشتغل به العاقل الناصح لنفسه وأنفعها وأصدقها، ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها، وأضرها للعقول، وأفتكها في إفساد المجتمع، ولما ترك المحاربون للَّه ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان.

* * *



القاعدة الخامسة والثلاثون

تقديم أعلى المصلحتين وأهون المفسدتين

في القرآن عدة آيات فيها الحث على أعلى المصلحتين وتقديم أهون المفسدتين، ومنع ما كانت مفسدته أرجح من مصلحته وهذه قاعدة جليلة، نبه اللَّه عليها في آيات كثيرة.

فمن **الأول**: المفاضلة بين الأعمال، وتقديم الأعلى منها؛ كقوله في سورة الحديد: ﴿**لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ**﴾ وقوله في سورة التوبة: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ الآية، وكقوله في سورة النساء: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ الآية.

ومن الثاني: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾.

بيَّن تعالى أن ما نقمه الكفار على المسلمين من قتال في الشهر الحرام، وإن كان مفسدة فما أنتم عليه من الصد عن سبيل اللَّه والكفر به وبسبيل هداه وبالمسجد الحرام وصدكم عنه، وإخراج أهله منه أكبر عند اللَّه وفتنتكم المؤمنين بشديد الأذى محاولين إرجاعهم إلى الشرك أكبر من القتال في الشهر الحرام.

وقوله في سورة الفتح: ﴿**وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ**﴾ الآيات. فكف اللَّه المؤمنين عن القتال في المسجد الحرام في صلح الحديبية مع وجود المقتضي من الكفار اتقاء للمفسدة المترتبة على ذلك: من إصابة المؤمنين

والمؤمنات المستضعفين الذين حبسهم المشركون بمكة عن الهجرة بأنواع من الأذىٰ أو القتل - ما يكون سببًا في لحوق المعرة بجيش المؤمنين.

وكذلك جميع ما جرى في صلح الحديبية من هذا الباب: من التزام تلك الشروط التي ظاهرها ضرر علىٰ المسلمين، ولكن تبين لهم بعد أنها عين المصلحة لهم والفتح المبين.

ومن هذا: أمره بكف الأيدي عن القتال قبل أن يهاجر الرسول إلىٰ المدينة؛ لأن الأمر بالقتال في ذلك الوقت أعظم ضررًا من الصبر والإخلاد إلىٰ السكينة، مع متابعة تبليغ الرسالة وإقامة الحجة والجهاد الكبير بالقرآن.

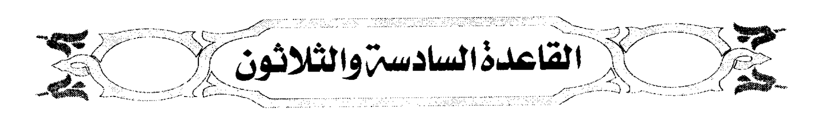
ولعل من هذا مفهوم قوله في سورة الأعلى: ﴿**فذكر إن نفعت الذكرى**﴾ يعني: فإن ضرت فترك التذكير الموجب للضرر الكثير هو المتعين، والآيات في هذا النوع كثيرة جدًا.

ومن الثالث: قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**﴾.

هذا كالتعليل العام أن كل ما كانت مضرته وإثمه أكبر من نفعه، فإن رحمة اللَّه وحكمته لا بد أن تقتضي المنع منه وتحريمه علىٰ عباده.

وهذا الأصل العظيم كما أنه ثابت شرعًا، فإنه هو المعقول بين الناس المفطورين علىٰ استحسانه، والعمل به في الأمور الدينية والدنيوية، واللَّه أعلم.

* * *



القاعدة السادسة والثلاثون

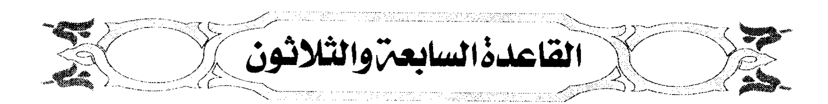
مقابلة المعتدي بمثل عدوانه

طريقة القرآن: إباحة الاقتصاص من المعتدي ومقابلة عدوانه بمثله، والنهي عن ظلمه، والندب إلى العفو عنه، والإحسان وهذا في آيات كثيرة، كقوله في سورة النحل: ﴿ **وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾، وقوله في سورة الشورى: ﴿ **وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾. فذكر المراتب الثلاث.

ولما كان القتال في المسجد الحرام محرمًا، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ **فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾، وهو كل ما حرم اللَّه وأمر باحترامه، فمن انتهكه فقد أباح اللَّه الاقتصاص منه، بقدر ما اعتدى به لا أكثر وقوله بعد ذلك: ﴿ **فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ** ﴾، وقوله في سورة البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى** ﴾ الآية، وقوله في سورة المائدة: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ** ﴾ الآية، وقوله في سورة الإسراء: ﴿ **وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا** ﴾، وقوله في سورة النساء: ﴿ **لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ** ﴾ الآية.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، واللَّه أعلم.

* * *



القاعدة السابعة والثلاثون

اعتبار المقاصد في ترتيب الأحكام

اعتبر اللَّه القصد والإرادة في ترتب الأحكام على أعمال العباد وهذا الأصل العظيم: صرح به النبي ﷺ، في قوله: «إنما الأعمال بالنيات» [متفق عليه].

والمقصود هنا: أنه ورد آيات كثيرة جدًا في هذا الأصل فمنها، وهو أعظمها أنه رتب حصول الأجر العظيم على الأعمال بإرادة وجهه تعالى، لما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، قال في سورة النساء: ﴿ **وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** ﴾، وفي مقابله قال: ﴿ **رِئَاءَ النَّاسِ** ﴾.

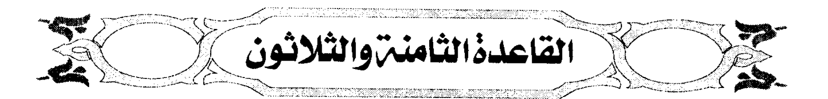
ووصف اللَّه نبيه وخيار خلقه من الصحابة رضي اللَّه عنهم، ومن تبعهم بأنهم يبتغون فضلاً من اللَّه ورضوانًا، وقال في الرجعة في سورة البقرة: ﴿ **وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا** ﴾، وقال في سورة البقرة: ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾، وقال في سورة النساء: ﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ** ﴾، وقال في سورة النساء: ﴿ **فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾، وفي سورة النساء: ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم** ﴾، وفي سورة البقرة: ﴿ **وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ** ﴾، وفي دعاء المؤمنين في سورة البقرة: ﴿ **رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ فقال اللَّه: (قد فعلتُ)، وقال في سورة الأحزاب: ﴿ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾.

وذكر اللَّه قتل الخطأ ورتب عليه الدية والكفارة، ثم قال في سورة النساء: ﴿ **وَمَن**

يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾، وقال في جزاء الصيد في سورة المائدة: ﴿ **وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ** ﴾ الآية، وقال في سورة البقرة: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ** ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن أعمال الأبدان وأقوال اللسان، صحتها وفسادها، وترتب أجرها أو وزرها: بحسب ما قام بالقلب من القصد والنية

* * *



القاعدة الثامنة والثلاثون

قد دلت آيات كثيرة على جبر المنكسر قلبه، ومن تشوفت نفسه لأمر من الأمور إيجابًا أو استحبابًا

وهذه قاعدة لطيفة، اعتبرها الباري وأرشد عباده إليها في عدة آيات.

منها: المُطلَّقة: فإنها لما كانت في الغالب منكسرة القلب حزينة على فراق بعلها، أمر اللَّه بمتعتها على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، متاعًا بالمعروف.

وكذلك من مات زوجها عنها، فإن من تمام جبر خاطرها: أن تمكث عند أهله سنة كاملة وصية ومتعة مرغب فيها.

وكذلك أوجب اللَّه للزوجة على الزوج النفقة والكسوة في مدة العدة، إن كانت رجعية، أو كانت حاملاً مطلقة.

وقال تعالى في سورة النساء: ﴿**وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا**﴾، ويدخل الواجب والمستحب في مثل قوله في سورة الأنعام: ﴿**وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ**﴾.

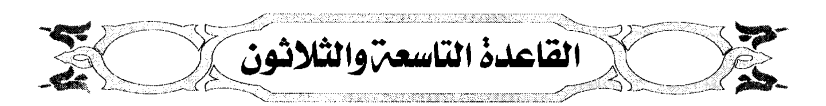
وكذلك إخباره عن عقوبة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يتركون شيئًا منها يلتقطه الفقير وتواصوا أن لا يدخلنها اليوم مسكين.

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ**﴾.

وقد ذكر اللَّه جبره لقلوب أنبيائه وأصفيائه أوقات الشدائد وإجابته لأدعيتهم

بتفريج الكربات . وأمر عباده بانتظار الفرج عند الأزمات فهذا أصل قد اعتبره اللَّه ، وأرشد إليه فينبغي للعبد أن يكون هذا على باله في أوقات المناسبات .

* * *



القاعدة التاسعة والثلاثون

في طريقة القرآن في أحوال السياسة الداخلية والخارجية

طريقة القرآن في هذا: أعلىٰ طريقة، وأقرب إلىٰ حصول جميع المصالح الكلية، وإلىٰ دفع المفاسد، ولو لم يكن في القرآن من هذا النوع إلا قوله تعالىٰ: في سورة آل عمران: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾، وإخباره عن المؤمنين في سورة الشورىٰ: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ فالأمر مفرد ومضاف إلىٰ المؤمنين، وفي الآية الأولىٰ: قد دخلت عليه: ﴿**ال**﴾ المفيدة للعموم والاستغراق، يعني أن جميع أمور المؤمنين وشئونهم، واستجلاب مصالحهم، واستدفاع مضارهم، معلق بالشورىٰ والتعاون علىٰ الاهتداء إلىٰ الأمر الذي يجرون عليه في حل مشكلاتهم، وتدعيم سلطانهم وتجنيبهم الخلاف المفضي إلىٰ تفكك قواهم وانحلال عراهم.

وقد اتفق العقلاء أن الطريق الوحيد للصلاح الديني والدنيوي هو طريق الشورىٰ.

فالمسلمون قد أرشدهم اللَّه أن يهتدوا إلىٰ مصالحهم وكيفية الوصول إليها بإعمال أفكارهم مجتمعة، فإذا تعينت المصلحة في طريق سلكوه، وإذا تعينت المضرة في طريق تركوه، وإذا اشتبهت بمضرة، نظروا: أيها أقوىٰ، وأحسن عاقبة ثم نظروا بأي شيء تدرك الأسباب وبأي حال تنال علىٰ وجه لا يضر سلكوها.

وإذا رأوا مصالحهم تتوقف علىٰ الاستعداد بالفنون الحديثة والاختراعات الباهرة وسعوا لذلك بحسب اقتدارهم، ولم يملكهم اليأس والاتكال علىٰ غيرهم، الملقي إلىٰ التهلكة، وإذا عرفوا ـ وقد عرفوا ـ أن السعي لاتفاق الكلمة وتوحيد الأمة هو الطريق الأقوم للقوة المعنوية جدوا في هذا واجتهدوا، وإذا رأوا المصلحة في المقاومة والمهاجمة أو في المسالمة والمدافعة بحسب الإمكان، سلكوا ما تعينت مصلحته

فيقدمون في موضع الإقدام، ويحجمون في موضع الإحجام وبالجملة لا يدعون مصلحة داخلية، ولا خارجية، دقيقة ولا جليلة إلا تشاوروا فيها، وفي طريق تحصيلها وتنميتها، ودفع ما يضادها وينقصها.

فهذا النظام العجيب الذي أرشدهم إليه القرآن: هو النظام الذي يصلح لكل زمان ومكان، ولكل أمة.

ومن ذلك: قوله في سورة الأنفال: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ**﴾ فهذه الآية تصرح بوجوب الاستعداد للأعداء بكل ما نستطيعه من قوة عقلية، ومعنوية ومادية، مما لا يمكن حصره وفي كل وقت ولكل عدو ويتعين سلوك ما يلائم ذلك الوقت ويناسبه.

ومن ذلك: قوله في سورة النساء: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾. ونحوها من الآيات التي أرشد اللَّه فيها إلى شدة التحرز من الأعداء، وأن نكون منهم أبدًا على حذر في وقت السلم، فضلاً عن وقت الحرب، وأن تكون لنا العيون والأرصاد عليهم، لنعلم كل حركاتهم الحربية والعلمية، لنأخذ السبيل عليهم ونسبقهم حتى لا يكون لهم من ضعفنا وجهلنا فرصة تمكنهم منا، وأن لا نمكنهم من الاطلاع على أسرارنا الحربية ولا مواردنا الاقتصادية، فضلاً عن أن نكون عالة عليهم فيها، فكل ذلك وغيره داخل في قوله: ﴿**خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾ ومن عجيب ما نبه عليه القرآن من النظام الوحيد: أن اللَّه عاتب المؤمنين بقوله في سورة آل عمران: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾ فأرشد اللَّه عباده إلى أنه ينبغي أن يكونوا بحالة من الحكمة واستقامة الأمور على طريقها، بحيث لا يزعزعهم عنها فَقْدُ رئيسٍ مهما كان عظيمًا.

وما يكون ذلك إلا بأن يستعدوا لكل أمر من أمورهم الدينية والدنيوية بعدة من القادة متساوين أو متقاربين في قوة القيادة والدربة والحنكة والسياسة الدينية

والاقتصادية والحربية، إذا فقد أحدهم قام مقامه غيره، وأن تكون الأمة متوحدة في إرادتها وعزمها ومقاصدها وشئونها.

قصدهم جميعًا: أن تكون كلمة اللَّه هي العليا، وأن تكون أمتهم ذات شوكة يرهبها العدو، فلا يستطيع أن يغتصبها بعض حقوقها المادية في أرضها ومنافعها ولا بعض حقوقها في سيادتها وحريتها.

وأن تقوم جميع الأمور بحسب قدرتهم وقواهم التي أنعم اللَّه بها عليهم ومكنهم بها من المحافظة التامة على حقوقهم في هذا الوجود مؤمنين أوثق الإيمان: أن اللَّه ما استخلفهم في الأرض إلا لإصلاحها باستثمار خيراتها واستخراج دفائنها وكنوزها، وتنمية قواهم وطاقاتهم الإنسانية بالعلم والفنون والصناعات مؤمنين أنه يبغض منهم أشد البغض، أن يكونوا ضعفاء أذلة عالة على غيرهم.

فإن سنة اللَّه في هذا الوجود أن الحياة العزيزة لا تكون إلا لمن أكرم نفسه، وأعزها، بحيث يكون الموت أحب إليه من أن يعيش آلاف السنين مهينًا ذليلاً لا يعرفه الوجود إلا تابعًا قد تلاشت شخصيته وانماع في متبوعه.

ولقد خلق اللَّه من العرب الضعفاء القليلين خير أمة أخرجت للناس في كل معاني الحياة العزيزة الكريمة حين فهموا هذا القرآن على وجهه الصحيح وآمنوا به واهتدوا بهداه.

وقال تعالى في سورة التغابن: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ أي اتقوا اللَّه واحذروا شديد عقابه بالقيام بما أمركم به من كل ما فيه الخير والصلاح لكم جماعة ومنفردين بكل جهدكم وبكل ما أعطاكم من طاقة وقوى، فإن هذا هو حق تقواه، وأن يبذل العبد كل ما في وسعه.

وليست ناسخة لآية آل عمران، بل هي مفسرة لها فكل مصلحة أمر اللَّه بها وهي متوقفة في حصولها أو في كمالها على أمر من الأمور السابقة واللاحقة، فإنه يجب

على الإنسان تحصيلها بكل ما عنده من الاستطاعة فإن اللَّه الحكيم لا يطلب إلى عباده إلا ما آتاهم من القوى والأسباب ما يقدرهم على القيام به ، ولكنهم يتوانون ويتكاسلون فيأتيهم العجز والفشل من ذلك .

وكذلك كل ما نهاهم عنه ، فإنه أعطاهم من القوى والأسباب ما يمكنهم من البعد عنه ومن الحلال ما يستغنون به .

فالأمر بالتقوى أمر بأسبابها ولازم الحق حق ، والوسائل لها أحكام المقاصد .

ومن الآيات الجامعة في السياسة: قوله تعالى في سورة النساء : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ والآية التي بعدها .

فالأمانات يدخل فيها أشياء كثيرة ، من أجَلِّها : الولايات الكبيرة والصغيرة والمتوسطة ، الدينية والدنيوية . فقد أمر اللَّه أن تؤدى إلى أهلها بأن يجعل فيها الأكفاء لها ، وكل ولاية لها أكفاء مخصوصون . فهذا الطريق الذي أمر اللَّه به في الولايات من أصلح الطرق لصلاح جميع الأحوال ، فإن صلاح الأمور بصلاح المتولين والرؤساء فيها والمدبرين لها والعاملين عليها ، فيجب تولية الأمثل فالأمثل : ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ .

ولن يتم ذلك للأمة - على ما أرشد اللَّه وأمر - إلا بأن يشعر كل واحد بالواجب عليه لنفسه وما لها وما عليها من الأمانات والواجبات عليه لأبنائه وزوجه ، وخدمه ومواليه وبهائمه ، وأرضه ومتجره ، وكل شيء وضعه اللَّه تحت يده واسترعاه إياه ، ويقدر المسئولية أمام اللَّه سبحانه ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ فيقوم بكل ما في مكنته وجهده بهذا الواجب غير متوان ولا متواكل فعندئذ - وعندئذ فقط - تكون الأمة صالحة في أفرادها وأُسرها وحكامها وأمرائها فصلاح المتولين للولايات الكبرى والصغرى عنوان صلاح الأمة وضده بضده

وأصدق البراهين على ذلك قول اللَّه في سورة الرعد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

فهل آن للذين يتجنون بالشكوى من ولاة أمورهم أن يعقلوا عن اللَّه سننه وحكمته فيعلموا أن الداء ليس في الحكام والولاة فقط، وإنما الداء في الأمة التي غفلت وغفل كل فرد فيها عن الواجب عليه فيما استرعاه اللَّه من الرعية، وخيانته لما استأمنه اللَّه من أمانات. وأن الولاة، إنما هم من أفراد الأمة والصورة المصغرة التي تمثل الأمة وتصورها ولكن أكثر الناس لا يعقلون.

ثم أرشدهم اللَّه إلى الحكم بين الناس بالعدل الذي ما قامت السموات والأرض إلا به، فالعدل قوام الأمور وروحها، وبفقده تفسد الأمور كلها ويختل الميزان لكل شيء.

والحكم بالعدل من لازمه: معرفة حقيقة العدل في كل أمر من الأمور، فإن فهمت الأمة حقيقة العدل وعرفت حدوده وضعت كل شيء في موضعه، وكان المتولون للولايات هم الكمل من الرجال والأكفاء للأعمال فَجَرَتْ تدابيرهم وأفعالهم على العدل والسداد متجنبين للظلم والفساد، ترقت الأمة وصلحت أحوالها، وتمام ذلك في الآية الأخرى التي أمر اللَّه فيها بطاعة ولاة الأمور بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فهل يوجد أكمل وأغنى من هذه السياسة الحكيمة الرشيدة التي عواقبها أحمد العواقب؟

ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع الآيات التي شرع اللَّه فيها الحدود على الجرائم، العقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده وهي في غاية العدالة والحسن وردع المجرمين والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد وتطهير المجتمع من فسادهم وتنقيته من جراثيمهم صيانة لدماء الخلق وأموالهم وأعراضهم.

والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي المنكر والتكلم بالحق مع من كان وفي

أي حال من الأحوال .

وكذلك ما فيه من النهي عن الظلم فيه إرشاد لإعطاء الناس الحرية النافعة التي معناها التكلم بالحق والدعوة إلى الصالح للأمة كما أن الحدود والعقوبات ، والنهي عن الكلام القبيح والفعل القبيح فيها ردع عن الحرية الزائفة الكاذبة التي يتمشدق بها الحمقى والسفهاء الذي عموا وصموا ، فلا يرون ما حل بأمم الغرب من الدمار من ثمرات هذه الحرية الفاجرة الخاسرة فإن ميزان الحرية الصحيحة النافعة هو ما أرشد إليه القرآن والنبي ﷺ .

وأما إطلاق عنان الجهل والظلم والأقوال الضارة للمجتمع المحللة للأخلاق ، فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد ، المؤدية إلى الفوضى المحضة وانحلال الأخلاق التي هي قوام كل أمة .

فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج ، فالشارع فتح الباب للأولى ، وأغلقه عن الثانية ، تحصيلاً للمصالح ، ودفعًا للمضار والمفاسد ، والله أعلم .

❊ ❊ ❊



القاعدة الأربعون

في دلالة القرآن على أصول الطب

حفظ الصحة باستعمال الأمور النافعة، والحمية عن الأمور الضارة، ودفع ما يعرض للبدن من المؤذيات.

ومسائل الطب كلها تدور على هذه القواعد.

وقد نبه القرآن على حفظ الصحة ودفع المؤذي في قوله من سورة الأعراف: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**﴾ فأمر اللَّه بالأكل والشرب اللذين لا تستقيم الأبدان إلا بهما وأطلق ذلك، ليدل على أن المأكول والمشروب بحسب ما يلائم الإنسان، وينفعه في كل وقت وحال.

ونهى عن الإسراف في ذلك، إما بالزيادة في كمية المأكولات والمشروبات، وإما في كيفيتها بالتخليط في المطعوم والأوقات، وهذا حمية عن كل ما يؤذي الإنسان، فإذا كان القوت الضروري من الطعام والشراب يصير بحالة يتأذى منه البدن ويتضرر منع منه، فكيف بغيره؟

وكذلك أباح اللَّه للمريض التيمم إذا كان استعمال الماء يضره، حمية له عن المضرات كلها.

وأباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه ويفدي، وهذا من باب الاستفراغ وإزالة ما يؤذي البدن، فكيف بما ضرره أكبر من هذا؟

ونهى عن الإلقاء باليد إلى التهلكة، فيدخل في ذلك استعمال كل ما يتضرر به الإنسان من الأغذية والأدوية، ودفع ما يضر بتجنبه، والتحرز عنه، وبمعالجة الحادث مما وقع فيه بالطرق الطبية النافعة.

وكذلك ما ذكره اللَّه في كتابه من الأعمال فإنها وإن كان المقصود الأعظم منها نيل رضا اللَّه وقربه وثوابه، والإحسان إلى عبيده، فإن فيها صحة للأبدان وتمرينًا لها، ورياضة وراحة للنفس، وفرحًا للقلب وأسرارًا خاصة، تحفظ الصحة وتنميها وتزيل عنها المؤذيات.

وبالجملة فإن جميع الشرائع ترجع إلى صلاح القلوب والأرواح والأخلاق والأبدان والأموال والدنيا والآخرة، واللَّه أعلم.

* * *



القاعدة الحادية والأربعون

قصر النظر على الحالة الحاضرة

يرشد اللَّه عباده في كتابه من جهة العمل إلىٰ قصر نظرهم علىٰ الحالة الحاضرة التي هم فيها، ومن جهة الترغيب في الأمر والترهيب من ضده إلىٰ ما يترتب عليه من المصالح، ومن جهة النعم وتقديرها بالنظر إلىٰ ضدها.

وهذه القاعدة الجليلة دعا إليها القرآن في آيات عديدة، وهي من أعظم ما يدل علىٰ حكمة اللَّه، ومن أعظم ما يرقي العالمين إلىٰ كل خير ديني ودنيوي، فإن العامل إذا اشتغل بعمله الذي هو وظيفة وقته، قصر فكره وظاهره وباطنه عليه فينجح ويتم له الأمر بحسب حاله.

وإن تشوفت نفسه إلىٰ أعمال أخرىٰ لم يحن وقتها بعد شغل بها ثم استبعد حصولها، ففترت عزيمته، وانحلت همته، وصار نظره إلىٰ الأعمال الأخرىٰ كليلاً ينقص من إتقان عمله الحاضر وجمع الهمة عليه.

ثم إذا جاءت وظيفة العمل الآخر جاءه وقد ضعفت همته وقل نشاطه، وربما كان الثاني متوقفًا علىٰ الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني بخلاف من جمع قلبه وقالبه، علىٰ كل عمل في وقته، فإنه إذا جاء العمل الثاني يأتيه مستندًا له بقوة ونشاط جديدين حصلها من نشاطه وقوته في الأول، فيتلقاه بشوق وعزيمة فيفلح فيه وينجح، وهكذا هو أبدًا متجدد القوىٰ.

ومن هذا: قوله تعالى مصرحًا بهذا المعنى في سورة النساء: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً** ﴾.

فانظر كيف حالهم الأولى وأمنيتهم وهم مأمورون بكف الأيدي، فلما لم يقبلوا موعظة اللَّه، ضعفوا فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا عنه كل الضعف.

ونظير هذا: ما عاتب اللَّه به أهل أُحد في قوله في سورة آل عمران: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ وقد كشف قوله تعالىٰ في سورة النساء: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾؛ لأن فيه تكميلاً للعمل الأول، وتثبيتًا من اللَّه، وتمرنًا علىٰ العمل الثاني.

ونظيره: قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية.

فاللَّه أرشد العباد أن يكونوا أبناء وقتهم، وأن يقوموا بالعمل الحاضر ووظيفته، ثم إذا جاء العمل الآخر صار وظيفة ذلك الوقت فاجتمعت الهمة والعزيمة الصادقة عليه، وصار القيام بالعمل الأول معينًا علىٰ الثاني، وهذا المعنىٰ في القرآن كثير.

وأما الأمور المتأخرة، فإن اللَّه يرشد العاملين إلىٰ ملاحظتها لتقوىٰ هممهم علىٰ العمل المثمر للمصالح والخيرات، وهذا كالترغيب المتنوع من اللَّه علىٰ أعمال الخير، والترهيب من أفعال الشر، بذكر عقوباتها، وثمراتها الذميمة.

فاعرف الفرق بين النظر إلىٰ العمل الآخر الذي لم يجيء وقته، وبين النظر إلىٰ ثواب العمل الحاضر الذي كلما فترت همة صاحبه زاد وهنًا وضعفًا، وكلما اتسع أمله فيما يترتب عليه من الخيرات تجدد نشاطه، وقوي، وهانت عليه مشقته، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾.

وأما إرشاده من جهة النعم علىٰ العبد من اللَّه بالنظر إلىٰ ضدها ليعرف قدرها،

ويزداد شكره للّه عليها، ففي القرآن منه كثير يذكر عباده نعمته عليهم بالدين والإسلام وما ترتب على ذلك من النعم، كقوله في سورة آل عمران: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ .

وفي قوله في سورة آل عمران: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴾ أي تهتدون إلى الزيادة من هذه الأسباب والنعم.

وقوله في سورة الأنفال: ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ .

وقوله في سورة القصص: ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ..** ﴾ إلى آخر الآيات، حيث يذكرهم أن ينظروا ضد ما هم فيه من النعم والخير، ليعرفوا قدر ما هم فيه منها.

وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، حيث قال: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة اللّه عليكم» وقوله تعالى: ﴿ **فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾ ، وقوله: ﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ** ﴿٦﴾ **وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ** ﴿٧﴾ **وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾ إلى آخرها.

* * *



القاعدة الثانية والأربعون

الحقوق للَّه ولرسوله

قد ميز اللَّه في كتابه بين حقه الخاص، وحق رسوله الخاص، والحق المشترك.

واعلم بذلك أن الحقوق ثلاثة: حق للَّه وحده، لا يكون لغيره، وهو عبادته وحده لا شريك له بجميع أنواع العبادت، وحق خاص لرسوله ﷺ، وهو التعزير والتوقير والقيام بحقه اللائق واتباعه والاقتداء به، وحق مشترك وهو الإيمان باللَّه ورسوله وطاعة اللَّه ورسوله ومحبة اللَّه ومحبة رسوله.

وقد ذكر اللَّه الحقوق الثلاثة في آيات كثيرة من القرآن فأما حقه الخاص: فكل آية فيها الأمر بعبادته وإخلاص العلم له، والترهيب من ضد ذلك وهذا شيء لا يحصى.

وقد جمع اللَّه ذلك في قوله في سورة الفتح: ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾ فهذا مشترك ﴿**وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ**﴾ فهذا خاص بالرسول ﴿**وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ فهذا حق للَّه وحده.

وقوله: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ في آيات كثيرة.

وكذلك: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾.

وكذلك قوله في سورة التوبة: ﴿**وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ**﴾ فهذا مشترك ﴿**إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ**﴾ هذا مختص باللَّه تعالى.

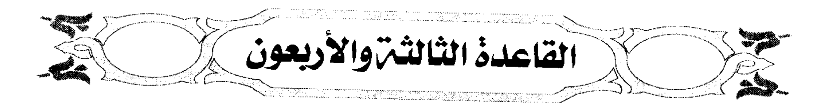
ولكن ينبغي أن يعرف العبد أن الحق المشترك ليس معناه أن ما للَّه منه يثبت لرسوله

مثله ونظيره في كل خصائصه، بل المحبة والإيمان والطاعة للَّه لا بد أن يصحبها التعبد والتعظيم للَّه والخضوع رغبة ورهبة .

وأما المتعلق بالرسول من ذلك: فإنه حب في اللَّه، وطاعة للَّه فمن أطاع الرسول فقد أطاع اللَّه بل حق الرسول على أمته من حق اللَّه تعالى عليهم، فيقوم المؤمن بحق رسوله وطاعته امتثالاً لأمر اللَّه، وعبودية له .

وإنما قيل له حق الرسول؛ لتعلقه بالرسول، وإلا فجميع ما أمر اللَّه به وحث عليه من القيام بحقوق رسوله، وحقوق الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب والجيران والعلماء والولاة والأمراء، والكبير على الصغير والصغير على الكبير وغيرهم، كله حق للَّه تعالى، فيقوم به العبد امتثالاً لأمر اللَّه وتعبداً له، وقياماً بحق ذي الحق، وإحساناً إليه، إلا الرسول فإن الإحسان منه كله إلى أمته فما وصل إليهم خير إلا على يديه صلى اللَّه عليه وسلم تسليماً .

* * *



القاعدة الثالثة والأربعون

الأمر بالتثبت

يأمر اللَّه بالتثبت وعدم العجلة في الأمور التي يخشى من سوء عواقبها، ويأمر ويحث على المبادرة على أمور الخير التي يخشى فواتها.

وهذه القاعدة في القرآن كثيرة:

قال تعالى في القسم الأول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا**﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ**﴾، وفي قراءة: ﴿فتثبتوا﴾ فيهما.

وقد عاب اللَّه المتسرعين إلى إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها وأن ذلك من اتباع خطوات الشيطان، فقال تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ**﴾.

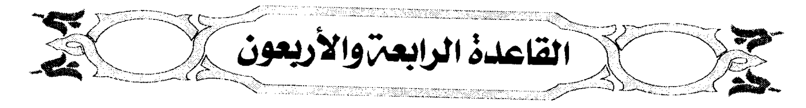
ومن هذا الباب: الأمر بالمشاورة في الأمور، وأخذ الحذر، وأن لا يقول الإنسان ما ليس له به علم، وفي هذا آيات كثيرة.

وأما القسم الثاني: فقوله: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾ الآيات، وقوله: ﴿**فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾، وقوله: ﴿**أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ**﴾، وقوله: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ**﴾ أي السابقون في الدنيا إلى الخيرات: هم السابقون في الآخرة إلى الجنات والكرامات. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وهذا الكمال الذي أرشد اللَّه عباده إليه، هو أن يكونوا حازمين لا يفوتون فرص

الخيرات ، وأن يكونوا متثبتين خشية الوقوع في المكروهات والمضرّات . ومن أحسن من اللَّه حكمًا لقوم يوقنون؟

* * *



القاعدة الرابعة والأربعون

علاج ميل النفوس إلى ما لا ينبغي

عند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي، يذكرها الله ما يفوتها من الخير، وما يحصل لها من الضرر بهذا الميل.

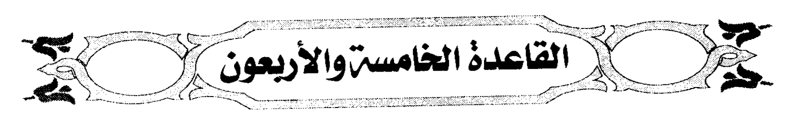
وهذا في القرآن كثير، وهو من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة؛ لأن الأمر والنهي المجرد لا يكفي أكثر الخلق في كفهم عما لا ينبغي، حتى يقرن بذلك ما يفوت من المحبوبات التي تزيد ثمراتها الطيبة أضعافًا مضاعفة على الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتب عليه كذلك.

قال تعالى: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ فهنا لما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر نفوس الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكرًا لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** ﴾.

والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جدًا. فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها سهل عليه تنزيل كل ما يرد منها على الأصل المقرر، والله أعلم.

* * *



القاعدة الخامسة والأربعون

حث الباري سبحانه في كتابه على الصلاح والإصلاح

وهذه القاعدة من أهم القواعد، فإن القرآن كله لهذا المقصد نزل.

والصـــلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنه اللَّه مقصوداً بها غاياتها الحميدة، التي قصد اللَّه إليها. فأمر اللَّه بالأعمال الصالحة وأثنى على الصالحين، لأن أعمال الخير تصلح القلوب والإيمان، وتصلح الدين والدنيا والآخرة، وضدها فساد هذه الأشياء، وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين لما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس وأخبر على وجه العموم أن الصلح خير.

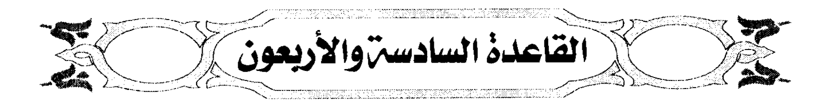
فإصلاح الأمور الفاسدة: هو السعي في إزالة ما تحتوي عليه وتنتجه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصـــلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾ فكل ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية، فإنه مصلح، واللَّه يهديه ويرشده ويسدده، وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مفسد، واللَّه لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهم مـا حثَّ اللَّه عليـه: السعي في الصلح بين المتنازعين، كما أمر اللَّه بذلك في الدماء والأموال والحقوق المتنازع عليها بين الزوجين، والواجب أن يصلح بالعدل ويسلك كل طريق توصل إلى الملاءمة بين المتنازعين، فإن آثار الصلح بركة وخير وصلاح، حتى إن اللَّه أمر المسلمين إذا جنح الكفار الحربيون إلى المسالمة والمصالحة، أن يوافقوهم على ذلك متوكلين على اللَّه.

وأمثلة هذه القاعدة لا تنحصر، وحقيقتها: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها الكلية منها والجزئية، والمتعدية والقاصرة، والله أعلم.

* * *



توجه الأمر إلى الداخل فيه فيصححه ويكمله

ما أمر اللَّه به في كتابه، إما أن يوجه إلى من لم يدخل فيه فهذا أمر له بالدخول فيه، وإما أن يوجه لمن دخل فيه، فهذا أمره به ليصحح ما وجد عنده منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد فيه.

وهذه القاعدة مطردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها.

فقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا ﴾ من القسم الأول.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾ من الثاني والثالث، فإنه أمرهم بما يصحح ويكمل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، ونهاهم عما يفسدها وينقصها.

وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان أمر بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل. ونهي عن كل مفسد وناقص لذلك العمل.

وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

وبهذه القاعدة نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، مع أن اللَّه قد هداهم للإسلام!!.

جوابه: ما تضمنته هذه القاعدة.

ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل، فافهم هذا الأصل الجليل النافع، الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزاً، وهو في غاية اليسر والوضوح لمن تفطن.

القاعدة السابعة والأربعون

السياق الخاص يراد به العام

إذا كان سياق الآيات في أمور خاصة وأراد اللَّه أن يحكم عليها وذلك الحكم لا يختص بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء اللَّه بالحكم العام.

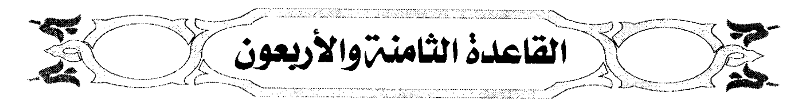
وهذه القاعدة من أسرار القرآن وبدائعه، وأكبر دليل على إحكامه وانتظامه العجيب.

وأمثلة هذه القاعدة كثيرة:

منها: لما ذكر اللَّه المنافقين وذمهم، استثنى منهم التائبين، فقال: ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ فلما أراد اللَّه أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجرًا عظيمًا، بل قال: ﴿ **وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ ليحضهم على المسارعة إلى التوبة وإخلاص الإيمان ليشملهم وغيرهم من كل مؤمن، ولئلا يظن اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا** ﴾. ولم يقل: وأعتدنا لهم، للحكمة التي ذكرها، ومثله: ﴿ **قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا** ﴾ أي هذه الحالة التي وقع السياق لأجلها ﴿ **وَمِن كُلِّ كَرْبٍ** ﴾.

* * *



القاعدة الثامنة والأربعون

تعليق علم اللّه بالأمر بعد وجوده

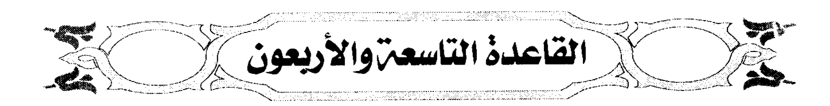
متىٰ علق اللّه علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك: العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وذلك أنه قد تقرر في الكتاب والسنة والإجماع أن اللّه بكل شيء عليم، وأن علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن والجليات والخفيات، والماضي والمستقبل، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا وقد ورد عدة آيات يخبر بها أنه شرع وقدر كذا: ليعلم كذا.

فوجه هذا: أن هذا العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

وأما علمه بأعمال العباد وما هم عاملون قبل أن يعملوا فذلك علم لا يترتب عليه الجزاء؛ لأنه إنما يجازي علىٰ ما وجد من الأعمال، وعلىٰ هذا الأصل نزل ما يرد عليك من الآيات كقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ** ﴾، وقوله: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ** ﴾، وقوله: ﴿ **وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ﴾، وقوله: ﴿ **لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا** ﴾.

وما أشبه هذه الآيات كلها علىٰ هذا الأصل.

* * *



القاعدة التاسعة والأربعون

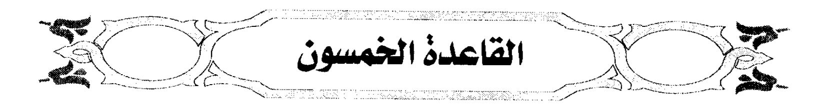
فتح الله أبوابًا أنفع وأسهل مما أغلقها

إذا منع اللَّه عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرداتهم، فتح لهم بابًا أنفع لهم منه، وأسهل وأولى.

وهذا من لطفه، قال تعالى: ﴿**وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ**﴾ فنهاهم عن تمني ما ليس بنافع، وفتح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان المقال ولسان الحال.

ولما سأل موسىٰ عليه السلام ربَّه الرؤية حين سمع كلامه، ومنعه منها، وبلسان المقال سلاه بما أعطاه من الخير العظيم، فقال: ﴿**يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ**﴾ وفي هذا المعنىٰ آيات كثيرة.

* * *



القاعدة الخمسون

آيات الرسول: هي التي يبديها الباري ويبتديها

وأما ما أبداه المكذبون له واقترحوه، فليست آيات. وإنما هي تعنتات وتعجيزات.

وبهذا يعرف الفرق بينها وبين الآيات، وهي البراهين والأدلة على صدق الرسول وغيره من الرسل، وعن صدق كل ما أخبر اللَّه به، وأنها الأدلة والبراهين التي يلزم من فهمها على وجهها صدق ما دلت عليه ويقينه.

وبهذا المعنى الحديث: «**ما أرسل اللَّه من رسول إلا أعطاه من الآيات ما على مثله آمن البشر**»، وأما ما آتى اللَّهُ محمداً ﷺ، من الآيات فهي لا تحد ولا تعد من كثرتها، وقوتها ووضوحها، وللَّه الحمد فلم يبق لأحد من الناس بعدها عذر.

فعلم بذلك أن اقتراح المكذبين لآيات يعينونها ليست من هذا القبيل، وإنما مقصودهم بهذا أنهم وطنوا أنفسهم على دينهم الباطل وعدم اتباع النبي ﷺ.

فلما دعاهم إلى الإيمان وأراهم شواهد الآيات أرادوا أن يبرروا ما هم عليه عند الأغمار والسفهاء، بقولهم: ائتنا بالآية الفلانية، والآية الفلانية، إن كنت صادقًا فهذه طريقة لا يرتضيها أدنى منصف، ولهذا يخبر تعالى أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا لم يؤمنوا لأنهم وطنوا أنفسهم على الرضا بدينهم بعد ما عرفوا الحق ورفضوه.

وأيضًا فهذا من جهلهم في الحال والمآل.

أما الحال: فإن هذه الآيات التي يقترحونها جرت العادة أن المقترحين لها لم يكن قصدهم الحق، فإذا جاءت ولم يؤمنوا عوجلوا بالعقوبة الحاضرة.

وأما المآل: فإنهم أظهروا أنهم جزموا جزمًا لا تردد فيه أنها إذا جاءت آمنوا وصدقوا، وهذا قلب للحقائق، وإخبار بغير الذي في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية

اقترحوها لم يؤمنوا إلا أن يشاء اللَّه تعالىٰ .

وهذا النوع ذكره اللَّه في كتابه عن المكذبين في آيات كثيرة جدًا، كقولهم: ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا** ﴾ . . . الآيات، وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً** ﴾ . . . إلىٰ آخرها .

وأيضًا إن اقتراحهم هذا ينادي صريحًا بأنهم ينسبون إلىٰ اللَّه العجز والعبث، إذ أنه أرسل رسولاً لم يؤيده بالآيات الكافية في الدلالة علىٰ صدقه، ولم يعطه من البراهين والحجج ما يبطل دعاوىٰ خصمه .

وهذا ينافي الحكمة، ولا يتفق مع الغرض الذي من أجله أرسل اللَّه رسوله .

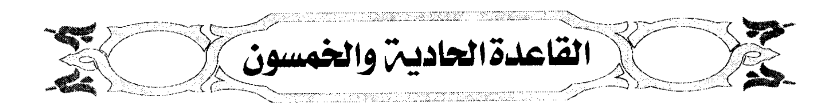
وهذا أعظم كفرًا وإجرامًا وأشد من شركهم وفسوقهم، وما كان يتولىٰ كبره منهم إلا السادة والرؤساء الذين تبين لهم صدق الرسول بدون أي خفاء، ولكنهم يحاولون بذلك صرف العامة والدهماء عن الاستماع إليه والإصغاء إلىٰ قوله، ولذلك يدمغهم اللَّه بميسم الخزي عقب كل تحد واقتراح لآيه، بعد أن ينزه نفسه سبحانه عما ينتقصونه به .

ففي سورة الإسراء يقول عقب سرد ما اقترحوا من آيات: ﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي** ﴾ ثم يقول: ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا** ﴾، ويقول في سورة العنكبوت: ﴿ **وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (٤٩) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ .

وأيضًا إذا تدبرت الاقتراحات التي عينوها لم تجدها في الحقيقة من جنس البراهين، وإنما هي - لو فرض الإتيان بها - شبيهة بآيات الاضطرار التي لا ينفع الإيمان معها، ويصير شهادة وإنما الإيمان النافع هو الإيمان بالغيب فكما أن اللَّه المنفرد بالحكم بين العباد في أديانهم، وحقوقهم وأنه لا حكم إلا حكمه، وأنه من قال ينبغي أو يجب أن يكون الحكم كذا وكذا، فهو متجرئ على اللَّه، متوثب على حرمات اللَّه، وأحكامه.

فكذلك براهين أحكامه لا يتولاها إلا هو، فمن اقترح شيئًا من عنده فقد ادعى مشاركة الرب في حكمه، ومنازعته في الطرق التي يهدي ويرشد بها عباده ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾.

* * *



القاعدة الحادية والخمسون

دعاء العبادة والمسألة

كل ما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير اللَّه، والثناء على الداعين: يتناول دعاء المسألة، ودعاء العبادة.

وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء والدعوة: دعاء المسألة فقط، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء.

وهذا خطأ جرَّهم إلى ما هو شر منه. فإن الآيات صريحة في شموله لدعاء المسألة والعبادة.

ويدل على عموم ذلك: قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ أي أستجب طلبكم، وأتقبل عملكم ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ فسمى ذلك عبادة؛ وذلك لأن الداعي دعاء المسألة يطلب سؤله بلسان المقال، والعابد يطلب من ربه القبول والثواب، ومغفرة ذنوبه بلسان الحال.

فلو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك، وصيامك، وحجك، وأدائك لحقوق اللَّه وحق الخلق؟ لكان قلب المؤمن ناطقًا قبل أن يجيبك لسانه: بأن قصدي من ذلك رضا ربي، ونيل ثوابه، والسلامة من عقابه، ولهذا كانت النية شرطًا لصحة الأعمال وقبولها، وإثمارها الثمرة الطيبة في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿**فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ فوضع كلمة: ﴿**الدِّينَ**﴾ موضع كلمة (العبادة) وهو في القرآن كثير جدًا: يدل على أن الدعاء هو لب الدين وروح العبادة.

ومعنى الآية هنا: أخلصوا له إذا طلبتم حوائجكم، وأخلصوا له أعمال البِّر والطاعة.

وقد يقيد أحيانًا بدعاء الطلب، كقوله: ﴿ **فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ** ﴾ وأما قوله: ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا** ﴾ .. الآية، فيدخل فيه دعاء الطلب، فإنه لا يزال ملحًّا بلسانه، سائلاً دفع ضرورته، ويدخل فيه دعاء العبادة، فإن قلبه في هذه الحال يكون راجيًا طامعًا، منقطعًا عن غير اللَّه، عالمًا أنه لا يكشف ما به من السوء إلا اللَّه، وهذا دعاء عبادة.

وقوله: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ يدخل فيه الأمران، فكما أن من كمال دعاء الطلب، كثرة التضرع والإلحاح، وإظهار الفقر والمسكنة، وإخفاء ذلك وإخلاصه، فكذلك دعاء العبادة فإن العبادة لا تتم ولا تكمل إلا بالمداومة عليها ومقارنة الخشوع والخضوع لها وإخفائها، وإخلاصها للَّه تعالى.

وكذلك قوله عن خلاصة الرسل: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾. فإن الرغبة والرهبة وصف لهم كلما طلبوا وسألوا، ووصف لهم كلما تعبدوا وتقربوا بأعمال الخير والقرب.

وقوله: ﴿ **وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾، ﴿ **فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

فكما أن من طلب من غير اللَّه حاجة لا يقدر عليها إلا اللَّه فهو مشرك كافر، فكذلك من عبد مع اللَّه غيره فهو مشرك كافر.

ومثله: ﴿ **وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ كل هذا يدخل فيه الأمران.

وقوله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا** ﴾، يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة.

أما دعاء المسألة: فإنه يسأل اللَّه تعالىٰ في كل مطلوب باسم يناسب ذلك المطلوب ويقتضيه، فمن سأل رحمة اللَّه ومغفرته دعاه باسم الغفور الرحيم.

ومن سأل الرزق سأله باسم الرزاق، وهكذا.

وأما دعاء العبادة: فهو التعبد للَّه تعالىٰ بأسمائه الحسنىٰ، فيفهم أولاً معنىٰ ذلك الاسم الكريم، ثم يديم استحضاره بقلبه، حتىٰ يمتلئ قلبه منه.

فالأسماء الدالة علىٰ العظمة والجلال، والكبرياء تملأ القلب تعظيمًا وإجلالاً للَّه تعالىٰ.

والأسماء الدالة علىٰ الرحمة والفضل والإحسان تملأ القلب طمعًا في فضل اللَّه ورجاء لروحه ورحمته.

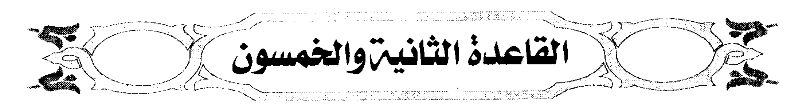
والأسماء الدالة علىٰ الود والحب والكمال تملأ القلب محبة وودًا وتألهًا وإنابة للَّه تعالىٰ.

والأسماء الدالة علىٰ سعة علمه ولطيف خبره توجب للعبد مراقبة اللَّه تعالىٰ والحياء منه.

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب هي أكمل الأحوال، وأجل وصف يتصف به القلب وينصبغ به، ولا يزال العبد يمرن نفسه عليها حتىٰ تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقادة راغبة، وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية.

فنسأل اللَّه تعالىٰ أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

* * *



القاعدة الثانية والخمسون

وضوح الحق يبطل المعارضة

إذا وضح الحق وبان لم يبق للمعارضة العلمية، ولا العملية محل.

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن وأرشد إليها في مواضع كثيرة.

وذلك: أنه من المعلوم أن محل المعارضات، وموضع الاستشكالات، وموضع التوقفات، ووقت المشاورات هو إذا كان الشيء فيه اشتباه أو احتمالات فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح.

فإذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحدًا واضحًا، وقد تعينت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارض هنا لا يلتفت إلى اعتراضاته؛ لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات.

قال تعالى: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾. يعني وإذا تبين هذا من هذا لم يبق للإكراه محل، لأن الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة، فأما أمر قد اتضح أن مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلقة به، فأي داع للإكراه فيه؟

ونظير هذا: قوله تعالى: ﴿**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾ أي هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقيته فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

كقوله: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ أي في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة، ويطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعينت مصلحته، وظهر وجوبه فقل فيه ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ**

عَلَى اللَّهِ ﴾.

وقد كشف اللَّـه هذا المعنـى غاية الكشف، في قوله: ﴿ **يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ** ﴾ أي فكل من حاول المعارضة في الحق بعد ما تبين علمه، أو طريق علمه، فإنه غالط شرعًا وعقلاً.

وقال تعالىٰ: ﴿ **وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم** ﴾ فَلامَـهُم علىٰ عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وذكر السبب لهذا اللوم؛ وهو أنه تعالىٰ فصل لعباده كل ما حرم عليهم فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محل.

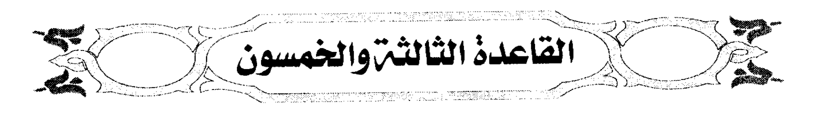
ولما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجـوب الإيمان، وَبَّخَ المتوقفين عنه بعد البيان، فقال: ﴿ **فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ** ﴾.

ولما بين جلال القـرآن وأنه أعلى الكلام، وأوضحه بيـانًا وأصدقه وأنفـعه ثمرة، قال تعالى: ﴿ **فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ** ﴾.

ولما ذكـر عظيم نعمـه الظاهرة والبـاطنة، قال تعـالى: ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى** ﴾، ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾، وقال تعـالىٰ: ﴿ **فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ** ﴾.

وكذلك في آيات كثيرة يأمره بمجادلة المكذبين ويجادلهم بالتي هي أحسن، حتىٰ إذا وصل معهم إلىٰ حالة وضوح الحق التام وإزالة الشبه كلها انتقل من مجادلتهم إلىٰ الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنىٰ الجليل كثيرة جدًا.

* * *



القاعدة الثالثة والخمسون

الأجر على قدر المشقة

من قواعد القرآن: أنه يبين أن الأجر والثواب على قدر المشقة في الطاعة والعبادة، ويبين مع ذلك أن تسهيله لطريق العبادة من منه، وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئًا.

وهذه القاعدة تبين أن من لطف الله وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة ما هو أثر عظيم من آثار فضله ونفحة من نفحاته، فالمشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشر بل هي خير محض، وإحسان صرف من الله على عباده، حيث قيض لهم هذه العبادات التي توصلهم إلى منازل من العز والكرامة في الدنيا والآخرة، لولاها لم يكونوا واصلين إليها.

قال تعالى: ﴿**إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ**﴾، وقال: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ . . . الآية، وقال: ﴿**إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب**﴾.

فكلما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر على المصيبات لشدة وقعها، كان الأجر أعظم والثواب أكبر.

وقال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: ﴿**إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ**﴾.

فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يسر بها العبادة، مزيلة، محصلة لثمراتها.

وقال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٦٢﴾ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴿٦٣﴾ **لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾.

فالبشرى التي وعد الله بها أولياءه في الحياة الدنيا من أشرفها وأجلها: أن ييسر لهم العبادات، ويهون عليهم مشقة القربات، وأن ييسرهم للخير، ويجنبهم الشر بأيسر عمل.

قال: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ** ﴿٥﴾ **وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ** ﴿٦﴾ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ** ﴾ أي لكل حالة فيها تيسير أموره وتسهيلها ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾.

ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوق حلاوة الطاعات واستعذاب المشقات في رضا الله تعالى.

فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن، إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حَمِدَ اللهَ وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها واحتسب الخير في عنائه، وجهاده، ورجا عظيم الثواب وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة، والله أعلم.

* * *



القاعدة الرابعة والخمسون

نفي الشيء لعدم وجود فائدة

كثيرًا ما ينفي الله الشيء وإن كانت صورته موجودة : لعدم وجود فائدته وثمرته المقصودة منه .

وذلك أن الله خلق الإنسان وركب فيه القوىٰ ، من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ليعرف بها ربه ، ويقوم بحقه فهذا المقصود منها ، وباستعمالها محررة من قيود التقليد ـ في التأمل والتفكر في آيات الله وسننه التي لا تبديل لها يتحقق لصاحبها ما خلقت له فتنمو وتكمل ويكمل صاحبها .

وبفقد ذلك يكون وجودها أضر علىٰ الإنسان من عدمها ، فإنها حجة الله علىٰ عباده ونعمته التي توجد بها مصالح الدين والدنيا ، فإما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها أو تكون محنة وحجة علىٰ صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له ، ولهذا كثيرًا ما ينفي الله هذه الأمور الثلاثة عن أصناف الكافرين بها المكبلين بسلاسل وأغلال التقليد الأعمىٰ للآباء والسادة والرؤساء ، المنسلخين من آيات الله ، وإن تسموا بأسماء إسلامية ولبسوا ثيابًا وألقابًا علمية ، فهم المعنيون في كلام الله بوصف الكفار والمنافقين .

كقوله : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ ، ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعقلون** ﴾ ، ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وقال في سورة الأعراف : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**

وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ .

وهذه آيات ربوبيته واضحة ناطقة فيكم، وفي تكوينكم في أصلاب آبائكم، وأرحام أمهاتكم، وإخراجكم منها بشرًا سويًا، وتسخير ما في السموات وما في الأرض جميعًا لكم - ثم ساق الآيات في عاقبة غفلة الإنسان عن تلك الآيات .

وبين سبب هذه الغفلة بقوله : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي ألقاها وخلعها كارهًا لها : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ فما أعطيناها له إلا ليتفكر بها في خلق الله وحكمته فيرتفع على درجات الكمال، ولكنه أخلد إلى الأرض البهيمية ورضي بالتقليد الأعمى الذي هو من خصائص الأنعام، ثم ختمها بسوء عاقبة هذا المنسلخ المقلد بقوله : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ .

فأخبر أن صور الحواس الحيوانية موجودة ولكن فوائدها الإنسانية مفقودة ولذلك قال : ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾، وقال : ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ .

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ فأثبت لهم الكفر من كل وجه ؛ لأن دعواهم الإيمان بما يقولون آمنا به من الكتب والرسل لم يوجب لهم الدخول في حقيقة الإيمان ؛ لأن ثمرة إيمانهم مفقودة حيث كذبوهم في صحة رسالة محمد ﷺ وغيره ممن كفروا به، وحيث أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم مما أثبتوا به رسالة من زعموا الإيمان به، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾

لما كان الإيمان النافع هو الذي يُغرس في قلب سليم من الجهل والشكوك والشبهات والتقاليد ويُسقى بعصارة تدبر آيات الله الكونية والقرآنية فيثمر في القلب والجوارح أطيب الثمرات من العبادة والطاعة، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته.

ويشبه هذا: ترتيب الباري كثيراً من الواجبات والفروض على الإيمان. كقوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾، وقوله: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾، وذلك أن الإيمان الصادق يقتضي صدق العقيدة وأداء الفرائض والواجبات، واجتناب الشرك والمحرمات، فما لم يحصل ذلك فهو بعد لم يتم ولم يتحقق، ولهذا قال: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد لكتب الله ورسله، قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ونظير ذلك: قول موسى عليه السلام، لما قال له بنو إسرائيل: ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فإذا كان فقد العلم جهلاً قبيحًا ففقد العمل به جهلٌ أقبح وأشنع.

❊ ❊ ❊



ثواب من أُحْصِرَ عن العمل

يكتب الله للعبد عمله الذي باشره، ويكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله قهرًا عنه، ويكتب له آثار عمله، فهذه الثلاثة وردت في القرآن.

أما الأعمال التي باشرها العبد: فأكثر من أن تحصىٰ النصوص فيها.

كقوله: ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾، ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾، ﴿ **لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ** ﴾، ونحو ذلك.

أما الأعمال التي عجز العبد عن تكميلها: فكقوله تعالىٰ: ﴿ **وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ** ﴾ فهذا خرج قاصدًا إلىٰ الهجرة، وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأتم الله له ما قصد إليه وأعطاه أجره فكل من شرع في عمل من أعمال الخير، ثم عجز عن إتمامه بما هو فوق طاقته، وكان من نيته إكماله فقد وقع أجره علىٰ الله.

فإنما الأعمال بالنيات، وقال تعالىٰ: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه، سواء كمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.

وأما آثار أعمال العبد: فقد قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا** ﴾ أي باشروا عمله ﴿ **وآثارهم** ﴾ التي ترتبت علىٰ أعمالهم من خير وشر في الدنيا والآخرة، وقال في المجاهدين: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ فكل هذه الأمور من آثار عملهم

ثم ذكر أعمالهم التي باشروها بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

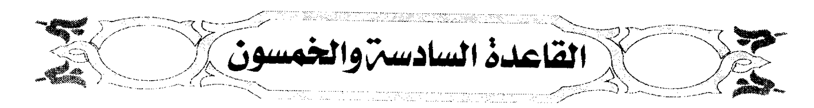
والأعمال التي هي من آثار عمل العبد نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان، كأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله، وكمن يتزوج بقصد الإعفاف فقط، فيعطيه الله أولادًا صالحين ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني: وهو أشرف النوعين: أن يقع ذلك بقصده، كمن علم غيره علمًا نافعًا، فنفس تعليمه ومباشرته له من أجل الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتب على ذلك، فإنه من آثار عمله.

وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج للعفة ولحصول الذرية الصالحة، فيحصل مراده، فإنه من آثار عمله وكذلك من يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا، أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمر دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع له ولغيره، فما ترتب من نفع على هذا العمل، فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ على عمله أجرًا وعوضًا، فإن الله يدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، ورامیه، والمُمِدَّ به.

* * *



تحيل المصالح على قدر الوسع والطاقة

يرشد القرآن المسلمين إلى إقامة جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من يقدر على القيام بها، وليوفر وقته عليها، لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعًا واحدة.

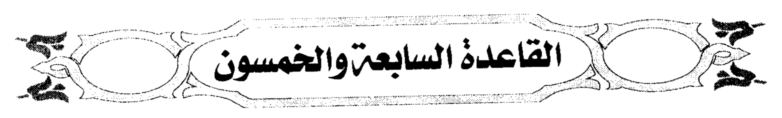
وهذه من القواعد الجليلة، ومن السياسة الشرعية الحكيمة، فإن كثيرًا من المصالح العامة الكلية لا يمكن أن يشتغل الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها. فالطريق إلى حصولها ما أرشد الله عباده إليه.

قال تعالى في الجهاد والعلم اللذين هما من أعظم مصالح الدين: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية، وبالعلم طائفة أخرى، وأن الطائفة القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت.

وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾، وقال: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا الأصل الجليل والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح الكلية، وأن يكون سائرًا في جميع أعماله إليها، فلو وفق المسلمون لسلوك هذه الطريق لاستقامت أحوالهم، وصلحت أمورهم، وانجابت عنهم شرور كثيرة، فالله المستعان.

❊ ❊ ❊



في كيفية الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيهما على التوحيد والمطالب العالية

قد دعا الله عباده إلى التفكر في هذه المخلوقات في آيات كثيرة وأثنى على المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آياتٍ وعِبَرًا نحن محتاجون إلى فهمها ومعرفة ما فيها لمصالح ديننا ودنيانا، فينبغي لنا أن نسلك هذا الطريق المنتج للمطلوب بأيسر وأوضح ما يكون.

وحاصل ذلك على وجه الإجمال: أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم، عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه - هذا أمر بدهي - فتيقنا أن الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، الكامل القدرة العظيم السلطان، الواسع العلم، وأن إعادتنا في النشأة الثانية للجزاء أسهل عليه من نشأتنا الدنيوية بكثير ﴿ **لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ** ﴾ وعرفنا بذلك أنه الحي القيوم.

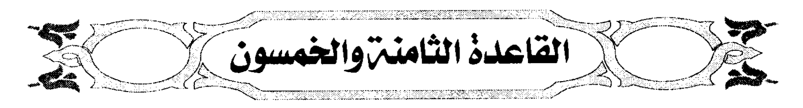
وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع، عرفنا بذلك كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصدًا وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الأخرى.

وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تحصى، عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود والامتنان، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دال على إرادة الله ونفوذ مشيئته، ونعرف بذلك كله أن من هذه أوصافه، وهذا شأنه، هو الذي لا يستحق العبادة أحد سواه، وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة

إلا إليه، ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له؛ لأن غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شئونها.

ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها وموادها وأرواحها قد مكن الله الآدميين من استخراج أصناف المنافع منها عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة، من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه من استخراج ما يصلح أحوالها منها، بحسب القدرة، ولم نخلد إلى الكسل والبطالة، أو نزعم أن علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة، بحجة أن الكفار سبقونا إليها، وفاقونا فيها، فإنها كلها - كما نبه الله - داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأنه يُعلم الإنسان ما لم يعلم.

* * *



القاعدة الثامنة والخمسون

الكمال إنما يظهر إذا قُرن بضده

إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة، قرن بهم الناقصين فيها من المستعدين للكمال، وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن:

منها: لما أراد الله إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلمه أسماء كل شيء ثم امتحن الملائكة، فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله إظهار شرف يوسف في سعة العلم والتعبير أرى المَلِكَ تلك الرؤيا، وعرضها على كل من له علم بها ومعرفة فعجزوا عن معرفتها، ثم بعد ذلك عبرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

ولما عارض فرعون الآيات التي أرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه فجمع كل سحار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم وألقى السحرة عصيهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر ﴿ **فسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم فظهرت هذه الآية الكبرى، وكان السحرة أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهرًا وباطنًا.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه أعداؤه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به نصره الله ذلك النصر العجيب، فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عَدُوه الشديدُ حَرْدُه، القويُّ مَكْرُه، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد

الأخذات وأعظم النكبات، وتخلصه وانفراج الأمر له، من أعظم أنواع النصر.

كما ذكر اللَّه هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقريب من هذا: نصره له يوم حنين، حيث أعجب المسلمين كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئًا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، وثبت الله نبيه ﷺ فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبر عنه، وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتد البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس، أنزل اللهُ فرجه ونصره ليكون لذلك موقع في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

ويقارب هذا: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم مبلسين، فيحصل من آثار نعمة الله والاستبشار بفضله، ما يملأ القلوب حمداً وشكراً، وثناء على الباري تعالى.

وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها، كقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾، وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ونلمح مثل هذا المعنى في قصة يعقوب وبنيه: حين اشتدت بهم الأزمة ودخلوا على يوسف، وقالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ الآية ثم بعد قليل قال: ﴿ادْخُلُوا

مصرَ إن شاءَ اللَّهُ آمنينَ﴾ . في تلك النعمة الواسعة والعيش الرغيد والعز المكين، والجاه العريض فتبارك من لا يدرك العباد من ألطافه ودقيق بره أقل القليل .

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يذكر عباده أثناء المصائب ما يقابلها من النعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكر الله المؤمنين حين أصيبوا بأُحد ما أصابوا من المشركين ببدر، فقال: ﴿**أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ .

وكذلك يبشر الله عبده بالمخرج من المصائب قبل أن تقلع عنه، ليكون هذا الرجاء مخففًا لما نزل به من البلاء .

قال تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ وكذلك رؤيا يوسف كان يعقوب إذا تذكرها هب على قلبه نسيم الرجاء ولهذا قال: ﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ**﴾ .

وكذلك قوله لأم موسىٰ في سورة القصص: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ .

وأعم من هذا كله: وعد الله لرسله بتمام الأمر وبالنصر وحسن العاقبة كان يهون عليهم به المشقات، ويسهل عليهم الكريهات، فيتلقوها بقلوب مطمئنة وصدور منشرحة .

وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

* * *



القاعدة التاسعة والخمسون

إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم

ما أعظم هذه القاعدة، وما أحكم هذا الأصل العظيم الذي نص نصًا صريحًا على عموم ذلك، وعدم تقييد هذا الهدى بحال من الأحوال فكل حال هي أقوم؛ في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار، والصغار، والصناعات، والأعمال الدينية، والدنيوية فإن القرآن يهدي لها ويرشد إليها، ويحث عليها.

معنى ﴿**أقوم**﴾ أي أكرم وأنفس وأصلح وأكمل استقامة، وأعظم قيامًا وصلاحًا للأمور.

فأما عقائد القرآن: فإنها هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب، وحياتها، وكمالها، فإنها تملأ القلوب عزة وكرامة بشعورها بالتجرد من الذل لمخلوق مثلها وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيمًا له وتألهًا وتعبدًا وإنابة. وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها: فإنه يدعو إلى التحلي بكل خلق جميل، من الصبر، والحلم، والعفو، والأدب، وحسن الخلق مع الله ومع الخَلْقِ، وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق يؤلف القلوب، ويجمع المتفرق.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهو يرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد، والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته، والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال حتى في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله، وخادمه وأصحابه، ومعامليه فكل مصلحة يتفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها، فإن القرآن يرشد

إليها نصًا أو ظاهرًا، أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية .

وتفصيل هذا الأصل لا يمكن استيفاؤه في هذه القواعد الإجمالية فكل التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة، وما تقتضيه المصالح تفصيلاً لهذا الأصل المحيط .

وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح أو معنى نافع، أو طريق صلاح يحرمه القرآن، والله ولي الإحسان .

* * *



القاعدة الستون

أنواع التعليم القصصي في القرآن

من قواعد التعليم التي أرشد الله إليها في كتابه، أن القصص المبسوطة يجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، وأن الأمور المهمة يتنقل في تقريرها نفيًا وإثباتًا من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتتقرر فيه المطالب المهمة، وذلك أن القصة إذا أجملت بكلام يكون لها كالأصل والقاعدة، ثم يقع التفصيل لذلك الإجمال، يحصل به الإيضاح والبيان التام الكامل، الذي يقع ما يقاربه لو فصلت القصة الطويلة من دون تقدم صورة إجمالية لها، فإن الصورة تشوق إلى التفصيل.

وقد ورد هذا في القرآن في مواضع:

في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: في قوله: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**﴾ ثم أخذ في تفصيلها: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ**﴾ ثم ساق القصة بتمامها.

وكذلك قصة أهل الكهف: قال في تصويرها الجملي: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا**﴾ فهذه الكلمات القليلة قد حوت مقصودها وزبدتها، ثم بسطها بقوله: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ**﴾... الآيات إلى آخر القصة.

وكذلك قصة موسى: قال: ﴿ **نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **يَحْذَرُونَ** ﴾ ثم أتى بعد ذلك بالتفصيل.

وقال في قصة آدم: ﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** ﴾ ثم أتى بعد ذلك بالقصة.

وأما التنقل في تقرير الأشياء من أمر إلى ما هو أولى منه، فكثير.

منــــه: قوله تعالى في الإنكار على من جعل مع الله إلهًا آخر، وإبطال زعمه الكاذب الذي هو أساس الوثنية: أن هؤلاء الأولياء والآلهة أبناء الله؛ لأنهم النور الذي انبثق منه ثم تجسدوا بشرًا ثم عادوا إلى النورانية، فيقول: ﴿ **مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ** ﴾ فأبان أن قولهم هذا بلا علم ومن المعلوم: أنه كل قول بلا علم من الطرق الباطلة.

ثم صرح بقبحه في قوله: ﴿ **كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ** ﴾ ثم ذكر له مرتبة من البطلان أسفل: ﴿ **إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا** ﴾.

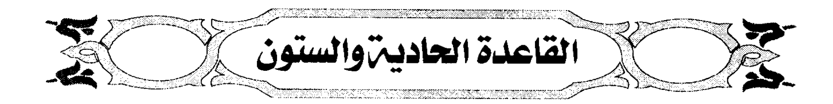
وقال في حق المنكرين للبعث: ﴿ **بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ** ﴾ أي علمهم فيها علم ضعيف سافل إلى أحط الدركات، لا يعتمد عليه إلا سفيه ثم انتقل إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿ **بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ** ﴾ والعمى آخر مراتب الحيرة والضلال.

وقال عن نوح في تقرير رسالته وإبطال قول من كذبه، وزعم أنه في ضلال مبين: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ** ﴾ ثم لما نفى الضلالة من كل وجه أثبت الهدى الكامل له، فقال: ﴿ **وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ ثم انتقل إلى ما هو أعلى منه، وأن مادة هذا الهدى الذي جئت به من الوحي الذي هو أصل الهدى ومنبعه، فقال: ﴿ **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾، وكذلك هود عليه الصلاة والسلام.

وقال في تقرير رسالة أفضل الرسل وخاتمهم: ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ** ﴾ فنفىٰ عنه ما ينافي الهدىٰ من كل وجه ثم قال: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ . . . الآيات.

وكانتقاله من ذكر هبة الولد لزكريا علىٰ كبره وعقم زوجته، إلىٰ ذكر مريم وعيسىٰ، وكذلك أمر بالتوجه إلىٰ الكعبة بعد أن قرر في الآيات السابقة حرمتها وعظمتها، وهذا في القرآن كثير.

* * *



القاعدة الحادية والستون

الانتفاع بالأوقات بحفظها وضبطها

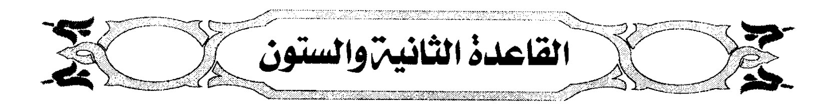
معرفة الأوقات وضبطها للاستفادة منها وحفظها من الضياع، حثَّ اللهُ عليه، حيث يترتب عليه حكم عام أو حكم خاص، وذلك أن الله رتب كثيرًا من الأحكام العامة والخاصة على أزمنة تتوقف الأحكام عملاً وتنفيذًا على ضبطها وإحصائها وتحديدها.

قال تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ** ﴾. فقوله: ﴿ **مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ** ﴾ يدخل فيه مواقيت الصلوات، والصيام، والزكاة، والعقود وغيرها، وخص بالذكر الحج لكثرة ما يترتب عليه من الأوقات العامة والخاصة.

وكذلك مواقيت العدد والديون، والإجارات وغيرها، قال تعالى لما ذكر العدة: ﴿ **وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ** ﴾، وقوله في الصيام: ﴿ **فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ** ﴾، ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا** ﴾. وذلك لمعرفة كمال قدرة الله في إفاقتهم، فمتى ترتب على ضبط الحساب وإحصاء المدة، مصلحة في الدين أو الدنيا، كان مما حث وأرشد إليه القرآن.

ويقارب هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا** ﴾ . . . الآية، وقوله: ﴿ **وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ** ﴾ ونحوها من الآيات.

* * *



القاعدة الثانية والستون

الصبر أكبر عون على النجاح

الصبر أكبر عون على جميع الأمور، والذي يعين على الصبر: معرفة حقيقته ومعرفة سبله وعواقبه ومعرفة الجزع وسبله وعواقبه.

وهذه القاعدة عظيمة النفع قد دل القرآن عليها في مواضع:

قال تعالى: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ**﴾ أي استعينوا على جميع المطالب، وفي جميع شئونكم بالصبر، فالبصبر: يسهل على العبد القيام بالطاعات، وأداء حقوق الله وحقوق عباده، وبالصبر يسهل عليه ترك ما تهواه نفسه من المحرمات، فينهاها عن هواها حذر شقاها، وطلبًا لرضى مولاها، وبالصبر تخف عليه الكريهات.

ولكن لهذا الصبر وسيلته وآلته التي ينبني عليها، ولا يتم وجوده إلا بها، وهي معرفة الشيء الذي يصبر عليه، ومعرفة ما فيه من الفضائل والثمرات المترتبة عليه.

فمتى عرف العبد ما في الطاعات من زيادة الإيمان، وصلاح القلوب واستكمال الفضائل، وما تثمره من الخيرات والكرامات، وما في المحرمات من الضرر والرذائل وما توجبه من العقوبات المتنوعة، وعلم ما في أقدار الله من البركة وما لَمنْ قام بوظيفته فيها من الأجور. إذا عرف ذلك هان عليه الصبر على جميع الشدائد.

وبهذا يعلم فضل العلم، وأنه أصل الفضائل كلها ولهذا يذكر الله كثيرًا في كتابه أن المنحرفين في الأبواب الثلاثة ما انحرفوا إلا لقصور علمهم، وعدم إحاطتهم التامة بها.

وقال: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾، وقال: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ**

يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ ليس معناه: أنهم لا يعترفون أنها ذنوب وسوء، وإنما قصر علمهم وخبرتهم بما توجبه الذنوب من العقوبات وأنواع المضرّات وزوال المنافع.

وقال تعالى عن الخضر لما قال له موسى: ﴿**هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا**﴾ ولو تجلد ما تجلد على صبره.

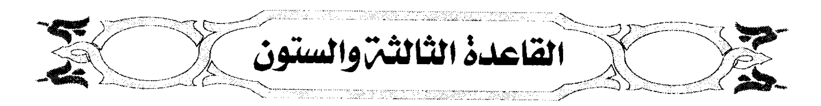
وقال تعالى مبينًا عظمة القرآن وما هو عليه من الجلاء والصدق الكامل ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**﴾ فبين أن الأعداء المكذبين إنما كان تكذيبهم به لعدم إحاطتهم بما هو عليه، وأنهم لو أدركوه وأحاطوا به كما هو عليه، لألجأهم واضطرهم إلى التصديق والإذعان.

فهم وإن قامت عليهم الحجة ولكنهم لم يفقهوه الفقه الذي يطابق معناه، ولم يعرفوه حق معرفته.

وقال في المعاندين الذي بان لهم علمه وخبروا صدقه: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ وقال الله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾.

والمقصود: أن الله تعالى أرشد العباد إلى الاستعانة على كل أمورهم بملازمة الصبر، وأرشدهم إلى تحصيل الصبر بالنظر إلى الأمور، ومعرفة حقائقها، وفضائلها ورذائلها.

* * *



القاعدة الثالثة والستون

العبرة بصدق الإيمان وصلاح الأعمال

يرشد القرآن إلى أن العبرة بحسن حال الإنسان وإيمانه الصحيح وعمله الصالح، وأن الاستدلال على ذلك بالدعاوى المجردة أو بالرياسات والأمور الدنيوية والتقاليد الموروثة: من طرق المنحرفين، والقرآن يكاد أن يكون أكثره تفصيلاً لهذا الأصل وقد قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾.

وقد أكثر الله من هذا المعنى في عدة مواضع.

وأما حكاية المعنى الآخر عن المنحرفين، فقال عن اليهود والنصارى: ﴿ **وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ ثم ذكر البرهان الذي من أقامه وأتى به فهو المستحق للجنة.

فقال: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾، وقال: ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به** ﴾، وقال: ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا** ﴾، ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾، ونحوها من الآيات التي يستدل بها الكفار على حسن حالهم، بتفوقهم في الأمور الدنيوية، والرياسات، ويذمون المؤمنين مستدلين بنقصهم في هذه الأمور الدنيوية الزائفة، وهذا من أكبر مواضع الفتن؛ فإن الرياسات والأمور الدنيوية مشتركة بين الخليقة: بَرِّها وفاجرها.

* * *



القاعدة الرابعة والستون

الأمور العارضة التي لا قرار لها بسبب المزعجات أو الشبهات قد تَرِدُ على الحق وعلى الأمور اليقينية ولكن سرعان ما تضمحل وتتلاشى

وهذه قاعدة شريفة جليلة قد وردت في عدة مواضع من القرآن، فمن لم يحكمها حصل له من الغلط في فهم بعض الآيات ما يوجب الخروج عن ظاهر النص، ومن عرف حكمة الله في ورودها على الحق الصريح: لأسباب مزعجة تدفعها أو لشبه قوية تحدثها ثم بعد هذا إذا رجع إلى اليقين، والحق الصريح، وتقابل الحق والباطل، ووقعت الخصومة بينهما، فغلب الحقُ الباطلَ، ودمغه فزهق الباطل وثبت الحقُ، حصلت العاقبة الحسنة، وزيادة الإيمان واليقين، فكان في ذلك التقدير حكمًا بالغة، وأيادٍ سابغة.

ولنمثل لهذا بأمثلة:

فمنها: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أكمل الخلق إيمانًا ويقينًا، وتصديقًا بوعد الله ووعيده، وهذا أمر يجب على الأمم أن يعتقدوه في الرسل، وأنهم قد بلغوا الذروة فيه، وأنهم معصومون من ضده، ولكن ذكر الله في بعض الآيات أنه قد يعرض لهم بعض الأمور المزعجة ـ المنافية حسًا لما علم يقينًا ـ ما يوجب لهؤلاء الكمل أن يستبطئوا معه النصر، ويقولوا: ﴿**مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ**﴾، وقد يخطر في هذه الحال للقلوب شيء من عوارض اليأس بحسب قوة الواردات وتأثيرها في القلوب، ثم في أسرع وقت تنجلي هذه الحال وتنفرج الأزمة ويأتي النصر من قريب ﴿**أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ فعندئذ يكون لنصر الله وصدق موعوده من الوقع والبشارة والآثار العجيبة

أمر كبير، لا يحصل بدون هذه الحالة.

ولهذا قال: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ فهذا الوارد الذي لا قرار له، وعندما حقت الحقائق اضمحل وتلاشىٰ، لا ينكر ولا يطلب للآيات الدالات عليه تأويلات تخالف ظاهرها.

ومن هذا الباب: قوله تعالىٰ: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته** ﴾ أي يلقي من الشبه ما يعارض اليقين.

ثم ذكر الحكم المترتبة على الإلقاء ولكن نهاية الأمر وعاقبته أن الله يبطل ما يلقي الشيطان، ويحكم الله آياته، والله عليم حكيم، فقد أخبر الله بوقوع هذا الأمر لجميع الرسل والأنبياء، لهذه الحكم التي ذكرناه، فمن أنكر ذلك بناء علىٰ أن الرسل لا ريب ولا شك أنهم معصومون، وظن أن هذا ينافي العصمة، فقد غلط أكبر الغلط، ولو فهم أن الأمور العارضة لا تؤثر في الأمور الثابتة لم يقل إلا قولاً يخالف فيه الواقع ويخالف بعض الآيات ويطلب التأويلات المستبعدات.

ومن هذا ـ علىٰ أحد قولي المفسرين ـ قوله تعالىٰ عن يونس: ﴿ **فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ** ﴾ وأنه ظن عرض في الحال ثم زال، نظير الوساوس العارضة في أصل الإيمان التي يكرهها العبد حين ترد علىٰ قلبه، ولكن إيمانه ويقينه يزيلها ويذهبها ولهذا قال ﷺ، عندما شكىٰ إليه أصحابه هذه الحال التي أقلقتهم، مبشراً لهم: «الحمد لله الذي رد كيده إلىٰ الوسوسة»، وأخبرهم أن هذا صريح الإيمان.

ويشبه هذا: العوارض التي تعرض في إرادات الإيمان لقوة وارد من شهوة أو غضب، وأن المؤمن الكامل الإيمان قد يقع في قلبه همٌّ وإرادة، لفعل بعض المعاصي التي تنافي الإيمان الواجب ثم يأتي برهان الإيمان، وقوة ما مع العبد من الإنابة التامة، فيدفع هذا العارض.

ومن هذا: قوله تعالىٰ عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا**

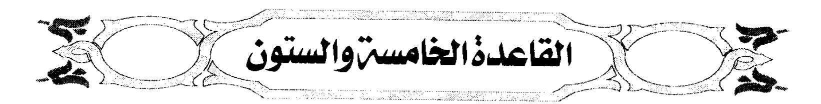
﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ وهو ما معه من الإيمان والخوف والخشية، والمعرفة التي دفعت عنه هذا الهمَّ وموجبه، وصارت إرادته التامة فيما يرضي ربه.

ولهذا فاز بمرتبة الصديقية؛ لقوة إخلاصه، ويقظة إيمانه بآيات ربه، وانتصر بعد المعالجة الشديدة من النسوة التي لا يصبر عليها إلا سادات الخلق حتى دعا ربه أن يبعده عن مواطن الفتن، فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وكان كل من يتشبه به ويقف أحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله» وقال تعالى: ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾ يشمل الطائف الذي يعرض في أصل الإيمان أو الذي يعرض في إرادته، فإذا مسهم تذكروا ما يدعو إلى الإيمان، وواجباته، من آيات الله وسننه وحكمته وأحكامه فأبصروا، فاندفعت الشبهات والشهوات فرجع الشيطان خاسئًا وهو حسير.

ولعل من هذا: قول لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، وقول النبي ﷺ: «لقد كان يأوي إلى ركن شديد» يعني: وهو الله القوي العزيز، لكن غلب على لوط في تلك الحالة الحرجة ملاحظة الأسباب العادية، فقال ما قال، مع علمه بقوة[1].

* * *

(١) كذا بالأصل، والظاهر وجود سقط.



القاعدة الخامسة والستون

قد أرشد القرآن إلى المنع من الأمر المباح إذا كان يفضي إلى ترك واجب، أوفعل محرم

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع متعددة، وهي من قاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد.

فمنها: قوله تعالى: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾.

وقوله: ﴿ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾.

وقوله: ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾.

فالأمور المباحة هي بحسب ما يتوسل بها إليه، فإن توسل بها إلىٰ فعل واجب أو مسنون كانت مأموراً بها.

وإن توسل بها إلىٰ فعل محرم أو ترك واجب، كانت محرمة منهيًا عنها وإنما الأعمال بالنيات الابتدائية والغائية، والله أعلم.

* * *



القاعدة السادسة والستون

أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة

وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها، وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه وبوجوده يكون الصلاح وبفقده يكون الشر والفساد.

وجميع الآيات القرآنية إما أمر به أو بحق من حقوقه أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين، ويقال له: توحيد الإلهية، فإن الإلهية وصفه تعالى الذي ينبغي أن يؤمن به كل بني آدم، ويوقنوا أنه الوصف الملازم له سبحانه، الدال عليها الاسم العظيم، وهو الله، وهو مستلزم جميع صفات الكمال، وقيل له: توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بصفته الملازمة له من مقتضيات العبودية للربوبية بإخلاص العبادة لله تعالى وتحقيقها في العبد أن يكون عارفًا بربه مخلصًا له عباداته محققًا ذلك بترك الشرك صغيره وكبيره وباتباع النبي ﷺ، ظاهرًا وباطنًا، والبراءة من كل بدعة وضلالة، والحب في الله والبغض في الله.

وهذا الأصل الذي هو أكبر الأصول وأعظمها قد قرره شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسائل لا تحصى وبالأخص في كتاب التوحيد.

وذكر من تقريره وتفاصيله وتحقيقه، ونفي كل ما يضاده ما لم يوجد في كتاب غيره.

والقرآن يقرره بطرق متنوعة، وقد تقدم في أول القواعد شيء من ذلك، وقد ذكرنا في التفسير ثمانية طرق كلية في تقرير هذا الأصل، وصورة ما ذكرناه على قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ . . . الآية، بعد ما ذكرنا تفسيرها.

الطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا اللَّه أمور:

أحدها: بل أعظمها، التفكر في سنن الله وآياته الكونية، ثم تدبر أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته، وجلاله، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بهبة النعم الظاهرة والباطنة، والدينية والدنيوية والأخروية، فإن ذلك يوجب تعليق القلب به خوفًا ورغبة ورهبة والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأوليائه، القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم بأنه تعالى المستحق للعبادة كلها وحده.

الخامس: معرفة الطواغيت التي فتنت الناس وصرفتهم عن كتبه ورسله ومعرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تنصر من عبدها ولا تنفعه بمثقال ذرة: من جَلْبِ خير، أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأن لا إله إلا الله.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه، وهو أعظم ما فيها.

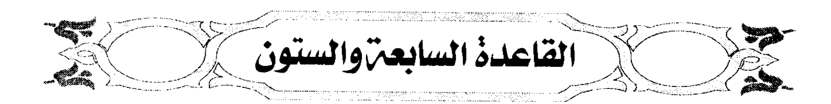
السابع: أن خواص الخلق الذين هم أكمل الخليقة أخلاقًا وعقولاً، وعلمًا ورأيًا وإصابة، وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك.

الثامن: ما أقامه من الأدلة الآفاقية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا هو، قد أبداها في كتابه وأعادها بطرق وأساليب متنوعة إلى آخر ما ذكرنا هناك.

وكل رسول أول ما يدعو قومه إلى هذا التوحيد ويقرره لهم بأكثر وأقوى من هذه الأدلة.

* * *



الرجوع إلى الأمر المحقق للخروج من المشيئة منه

يرشد القرآن إلى الرجوع إلى الأمر المعلوم المحقق، للخروج من الشبهات والتوهمات وهذه القاعدة جليلة يعبر عنها: بأن الموهوم لا يدفع المعلوم، وأن المجهول لا يعارض المحقق. ونحوها من العبارات.

وقد نبه اللَّه عليها في مواضع كثيرة:

منها: لما أخبر عن الراسخين في العلم، وأن طريقتهم في المتشابهات: أنهم يقولون: ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ فالأمور المحكمة المعلومة، يتعين أن يرد إليها كل أمر مشتبه مظنون.

وقال في زجر المؤمنين عن مجاراة الشائعات التي يقولها أهل السوء في إخوانهم المؤمنين: ﴿**لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ**﴾، فأمرهم بالرجوع إلى ما علموا من إيمان المؤمنين الذي يدفع السيئات، وأن يعتبروا هذا الأصل العظيم، ولا يعتبروا كلام الخبيثين بما يناقضه، ويقدح فيه.

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا**﴾ فوجاهته عند الله تدفع عنه وتبرئه من قساة القلوب، الذين أعلنوا بمعاداة الأنبياء واحتقارهم، مهما عاد عليهم من الخير العظيم من تعظيم الأنبياء، حتى لم يسلم من أذاهم موسى الذي شرفهم بالانتساب إليه.

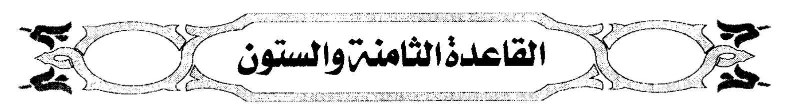
وقد جعل الله نجاتهم من سوء العذاب والتقتيل على يده مع وجاهته عند ربه.

فالله يحذر المؤمنين أن يتشبهوا ببني إسرائيل فيؤذوا أعظم الرسل جاهًا عند الله،

وأرفعهم مقامًا ودرجة، وأرأفهم بالمؤمنين وأكثرهم إحسانًا إلى الخلق.

وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾.

* * *



القاعدة الثامنة والستون

من ترك شيئًا للَّه عَوَّضه اللَّه خيرًا منه

وهذه القاعدة وردت في القرآن في مواضع كثيرة.

فمنها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله. فعوضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعز والتمكين.

وإبراهيم ﷺ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين.

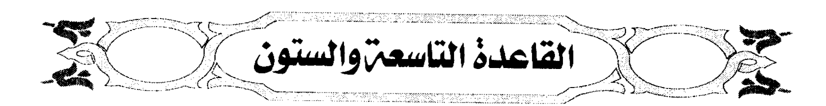
ويوسف عليه السلام لما ملك نفسه من الوقوع مع امرأة العزيز، مع ما كانت تمنيه به من الحظوة وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته وصبر على السجن وأحبه وطلبه ليبعد عن دائرة الفساد والفتنة عوضه الله أن مكن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، ويستمتع بما يشاء مما أحل الله له من الأموال والنساء والسلطان.

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله، نشر لهم من رحمته وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة وجعلهم سببًا لهداية الضالين.

ومريم ابنة عمران لما أحصنت فرجها أكرمها الله ونفخ فيه من روحه وجعلها وابنها آية للعالمين.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا كلها.

* * *



القاعدة التاسعة والستون

القرآن كفيل بمقاومة جميع المفسدين ولا يعصم من جميع الشرور إلا التمسك بأصوله وفروعه وتنفيذ شرائعه وأحكامه

قد تقدم من الأدلة على هذا الأصل الكبير في دعوة القرآن إلى الإصلاح والصلاح وفي طريقته في محاجة أهل الباطل، وفي سياسته الداخلية والخارجية ما يدل على هذا الأصل.

ويعرف الخلق أن العصمة من الشرور كلها لا طريق لها إلا التمسك بهذا القرآن وأصوله وعقائده، وأخلاقه، وآدابه، وشرائعه فأعظم أهل الشر: أهل التعطيل، العمون عما سوى المحسوسات المنكرون للخالق وأديان الرسل. وما أخبر الله به وأخبرت به رسله.

وفي القرآن من البراهين والحجج المتنوعة ما يبطل قولهم ويمحق مذهبهم، ويبين للعقلاء أنهم مكابرون في إنكار أظهر الأشياء البديهية وأجلاها.

ومنهم: أهل الشرك بالمخلوقات وتسويتها بالرب في شيء من الصفات والنعوت، أو الحقوق الخاصة لله وفي القرآن من إبطال الشرك، ووجوب التوحيد، وإقامة البراهين على تفرد الله تعالى بالوحدانية، وصفات الكمال، وأنه لا يستحق العبادة سواه، وأن لا أحد يساويه في وصف، ولا في حق من الحقوق ما يكفي بعضه لإزهاق قولهم.

ومنهم: المنكرون للأنبياء من الآدميين، وفيه من الحجج والبراهين على إثبات

رسالتهم، وإقامة الآيات والخوارق الدالة على صدقهم، والأوصاف والنعوت التي اتصفوا بها، ما يدل أكبر دلالة على أنهم رسل الله حقًا، وأنهم أصدق الخلق، وأكملهم في كل صفة كمال، وأكملهم في كل فضيلة.

ومنهم: المفرقون بين الأنبياء والكتب الذين يزعمون أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

وفي القرآن حجج وبراهين كثيرة تدل على إبطال قولهم، وأنهم متناقضون في إثباتهم وفي نفيهم، وأن الإيمان الحق والحق الصريح: هو الإيمان بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله، وأن الحق والصدق والعلم واليقين يجب الإيمان به، والاعتراف به حيثما كان، ومع من كان، وليس ذلك بالدعاوىٰ والأماني.

ومنهم: الإباحية والشيوعية الذين هم أخبث جرثومة لإفساد الأديان والملك والدنيا والآخرة، والقرآن كفيل بإبطال قولهم بما فيه من العقائد والبراهين، ووجوب التحلي بالأخلاق الجميلة والتخلي عن الأخلاق الرذيلة، وأداء الحقوق المتنوعة بين طبقات الناس، وإيتاء الزكوات، وإنقاذ المضطرين وغير ذلك من الأحكام والشرائع الحكيمة الرشيدة.

فكل هذا سد محكم يمنع نفوذ هؤلاء المفسدين ويقي شرهم ويزهق حجتهم.

ومنهم: أهل البدع على اختلاف مذاهبهم وتنوع نحلهم.

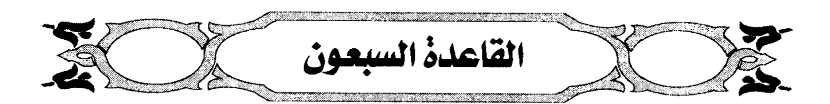
وفي القرآن من البراهين، ووجوب التمسك بما عليه النبي ﷺ، من أصول الدين، وفروعه، ووجوب رد المتشابه إلى المحكم، والاعتصام بحبل الله ودينه ما يبطل قولهم جميعًا ويكسر شوكتهم.

ومنهم: أهل التحزب والتشيع، وتفريق المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وفي القرآن من الحث على الاعتصام بحبل الله والحث على الألفة، والنهي عن التفرق والإخبار بأن التفريق في الدين طريق أهل الضلال والغضب، والتحذير من أحوال هؤلاء

وهؤلاء، ووجوب الاتفاق على الأصول العامة الكلية، مما يقمع شرهم، ويبين بشاعة طريقتهم.

ومنهم: أهل الفساد المنتهكون للدماء والأموال والأعراض وفي الآيات القرآنية من قمعهم وإقامة الحدود عليهم، والزجر عن طريقتهم ما يقمعهم ويردعهم، ويخفف شرهم، فكل صاحب شر وفساد إنما سلطته ووصول شره على من لم يعتصم بالقرآن، وكل من خرج من هذا الحصن الحصين الذي من دخله كان من الآمنين من كل شر وضرر، وهو القاهر لكل باطل والمطهر للقلوب والمجتمع من كل فساد.

* * *



القاعدة السبعون

في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني

اعلم أن ما مضى من القواعد السابقة هي المقصود بوضع هذا الكتاب، وهو بيان الطرق والمسالك والأصول التي يرجع إليها كثير من الآيات، وأنها وإن تنوعت ألفاظها، واختلفت أساليبها وتفاصيلها، فإنها ترجع إلى أصل واحد، وقاعدة كلية.

وأما نفس ألفاظ القرآن الحكيم فإن كثيراً منها من القواعد الجوامع، وهي من أعظم الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد وعلى صدق من أوحى إليه به، وأعطى جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً.

ولنضرب لهذا أمثلة ونماذج فمنها:

قوله تعالى: **﴿من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ ﴿والسابقون السابقون﴾ ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾** الآية، **﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ ﴿من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾ ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا﴾ ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا﴾ ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ ﴿وشاورهم في الأمر﴾ ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾ ﴿والصلح خير﴾**

﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ ﴿والله لا يحب الفساد﴾ ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله﴾ ﴿فلا تدع مع الله أحدا﴾ ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾ ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ ﴿ويؤت كل ذي فضل فضله﴾ ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ ﴿فاستقم كما أمرت﴾ ﴿فاستقيموا إليه﴾ ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ . . . الآيـات، ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ ﴿يهدي إلى الرشد﴾ ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ . . . الآيـة، ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ ﴿وخير مردا﴾ ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾ ﴿لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾ ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله﴾ . . . الآيـة، ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله﴾ ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ . . . الآية، ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ﴿ربنا

آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ .

فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها كل منها قاعدة، وأصل كلي، يحتوي على معان كثيرة .

وقد تقدم في أثناء القواعد منها شيء كثير، وهي متيسرة على حافظ القرآن، المعتني بمعرفة معانيه ولله الحمد .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

وقد يسر الله ما من بجمعه فجاء ولله الحمد على اختصاره ووجازته ووضوحه كتابًا يسر الناظرين ويعين على فهم كلام رب العالمين، وقد حوى من الأصول الكلية والقواعد العامة التي هي أجل القواعد وأنفعها وأصحها وأقواها شيئًا كثيرًا، وعلمًا واسعًا غزيرًا، ومخبر الكتاب يغني عن وصفه .

وأسأل الله الرحمن الرحيم أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، مقربًا إلى جنات النعيم، وأن ينفع به مؤلفه وقارئه، بمنه وكرمه، وجُودِه .

وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى آلهم بإحسان إلى يوم الدين آمين .

وقد تم ذلك في (٦ شوال سنة ١٣٦٥هـ) .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

الفهرست


العصر
للطباعة
هاتف : ٢٩٨٤٣٧٥
فاكس : ٢٤٣٣٢٤٩
محمول : ٠١٠١٩٠٠٠٣٨